صفحات مختارة من كتاب

البيان والتبيين

تأليف

أبوعبد الرحمن عثمان بن بحر (الجاحظ)

إختارها وقدم لها

أحمد رجب

الكتاب: صفحات مختارة من كتاب البيان والتبيين
الكاتب: أبو عبد الرحمن عثمان بن بحر (الجاحظ)
اختيار وتقديم: أحمد رجب
الطبعة: ٢٠٢٣



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

بن بحر ، أبو عبد الرحمن عثمان
صفحات مختارة من كتاب البيان والتبيين/ أبو عبد الرحمن عثمان بن بحر (الجاحظ), اختيار وتقديم: أحمد رجب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٦٩٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٤٥٨ / ٢٠٢٣

صفحات مختارة من كتاب

البيان والتبيين



تقديم

الجاحظ الكناني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (١٥٩ هـ–٢٥٥ هـ) ولد في مدينة البصرة نشأ فقيرا ، وكان دميما قبيحا جاحظ العينين عرف عنه خفة الروح وميله إلى الهزل والفكاهة ، ومن ثم كانت كتاباته على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والسخرية، طلب العلم في سن مبكّرة فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده ولكن اليتم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم ، فصار يبيع السمك والخبز في النهار ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته.

وكانت ولادة الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة ١٥٠ هـ وقيل ١٥٩ هـ وقيل ١٦٣ هـ وتوفي في خلافة المهتدي بالله سنة ٢٥٥ هجرية فعاصر بذلك ١٢ خليفة عباسياً هم : المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله ، وعاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها.

أخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة مؤلف كتاب نقائض جرير والفرزدق والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات، وأبي زيد

الأنصاري ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري.

كما كان متصلا بالثقافات غير العربية كالفارسية واليونانية والهندية عن طريق قراءة أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم، كحنين بن إسحق، وكان يُجيد اللغة الفارسية فقد دوّن في كتابه المحاسن والأضداد بعض النصوص باللغة الفارسية.

كذلك كان الجاحظ صاحب رحلة، فقد أمضى حياته متنقلاً بين البصرة وبغداد، ورحل إلى دمشق، وزار أنطاكية، وثمة احتمال بأنه زار مصر، فأكسبه التنقل وتنوع البيئة وتباين العيش عمقًا في التجربة، وشمولاً في النظرة، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس، ظهر أثرها جليًا في كتبه ومؤلفاته.

وحين خرج الجاحظ من البصرة إلى بغداد وهو في الخمسين من عمره، وكان ذلك في عصر المأمون سنة ٢٠٤هـ، تصدى هناك للتعليم والمناظرة، فقَصَدَهُ الأدباء والعلماء وأَمَّهُ الطلاب من كل صَوْب، ولما ذاع فضلُه وانتشر صِيتُه وعُرِفَتْ مؤلفاته، أقبلت عليه الدنيا، وصارت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة في كل شهر؛ وولي ديوانَ الرسائل في عهد المأمون، فلم يمكث به إلا ثلاثة أيام، ثم اعتذر عنه زُهْدًا منه في قيد الوظيفة، وإيثارًا للحرية والعافية، وانصرف إلى الكتابة والتأليف.

شهيد الكتب

تقدمت السِّنُّ بالجاحظ، فضَعُفَ جسمه ووَهَنَتْ قُواه، وأصيب بفالج (شلل) نصفي، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه يعاني قسوة المرض، حتى إن المبرد قال: «دخلتُ على الجاحظ في آخر أيامه، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مَفْلوجٌ لو حُزَّ بالمناشير ما شَعَرَ به، ونصفه الآخر مُنْقَرِسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك سِتٌّ وتِسعون سنة أنا فيها». وقال لطبيبه: «اصْطَلَحَتِ الأضداد على جسدي، إن أكلت باردًا أَخَذَ برِجْلي، وإن أكَلْتُ حارًا أَخَذَ برأسي». ومن عجب أن الجاحظ لم يمت نتيجة لهذه الأمراض التي اجتمعت عليه، بل راح شهيدَ الكُتُب، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به، وهو جالس بينها يقرأ، فانهالت عليه وقَتَلَتْهُ بعد أن كانت شاغلَ حياته، وكان ذلك عام ٢٥٥هـ، وبكاه أبو العَيْنَاء، فسُئل: أي شيء كان يُحْسن الجاحظ؟ فقال: وأي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟

البيان والتبيين

وهو أكثر كتب الجاحظ تداولاً، وأعظمها نفعًا، قال فيه ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمُبَرِّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

ويصف أبو هلال العسكري البيان والتبيين بأنه "كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالّة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير".

وقد ألّف الجاحظ كتاب البيان والتبيين (القسم الأول منه) في الفترة التي اتصل فيها بالقاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي (بعد ٢٣٢ هـ) ونال عليه جائزة تبلغ خمسة آلاف دينار، وأتمه بعد انتقاله إلى البصرة عند ما طعن في السن. وقد شرع بتأليفه بعد كتاب الحيوان كما يتضح من كلام الجاحظ ذاته حيث يقول: «كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفه عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب من ذلك أوفر إن شاء الله».

وكتاب البيان والتبيين أقدم وأهم محاولة لدراسة علم البيان وفلسفة اللغة. ويعتبر الجاحظ رائدا في هذا المضمار لمن جاء بعده أمثال ابن فارس وابن جني والسيوطي. وقد حصر الجاحظ أنواع البيان بخمسة لا تزيد ولا تنقص هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال.

وهو يعتبر الإشارة بالجوارح كاليد والطرف والحاجب مرفقا كبيرا يعين الناس في أمور يحاولون سترها عن البعض دون البعض. ولولاها لم يستطيعوا التفاهم في معنى خاص الخاص، أما الخط أو الكتابة فهو وسيلة التبيين في الكتب، ونقل المعرفة عبر الزمان والمكان، ولولاه لا ندثر العلم. ومن ثم كانت أهمية الكتب وأفضليتها لأن الكتاب يدرس في كل زمان ومكان بينما لا يعدو اللسان سامعه.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح. وقد عرف الكتاب بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: «هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة».

وهكذا نجد في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثا في البيان والتبيين، ومجموعات من الأحاديث والخطب والأشعار، ولقد التزم الجاحظ هذا البناء الفني لكتابه ليجنب القارئ الملل بتنويع الموضوعات. وقد عبّر عن ذلك بقوله: «وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم».

هكذا يبرر الجاحظ طرقه الموضوعات ذاتها في كل جزء من أجزاء الكتاب. فموضوع علم البيان وفلسفة اللغة توزع على الأجزاء الثلاثة: في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان، والبلاغة والفصاحة. وفي الجزء الثاني تحدث عن الخطابة وطبقات الشعراء. وفي الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة وقيمة الشعر.

وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأبيناء، خطبا ومقطعات وأحاديث ورسائل وأشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحمقى، نساك ومتهتكين، أعراب ومتحضرين، رؤساء وسوقة. وإذا سئل الجاحظ: لم لم تجمع كلامك على البيان وفلسفة اللغة في مكان واحد من الكتاب؟ ولم لم تضم أخبار الزهاد والنساك وأقوالهم في باب واحد ولم وزعت أخبار النوكى وأقوالهم على الأجزاء الثلاثة، ولم عدت إلى الكلام على الخطابة والخطباء مرارا وبعثرت خطبهم هنا وهناك الخ ردد صاحبنا الجواب ذاته واعتل بالعلة ذاتها.

ويلاحظ الدارسون أن الجاحظ تناول موضوع البيان في مقدمة الحيوان والجزء الأول من البيان والتبيين مرددا الأفكار ذاتها، وإذا كانت مقدمة «الحيوان» كتبت بعد الفراغ من تأليفه فهل يعني ذلك أنه طرق الموضوع على عجل في مقدمة «الحيوان» ثم استأنف التوسع فيه في «البيان والتبيين».

وقد جاء كتاب البيان والتبيين استجابة لاهتمام العرب في ذلك العصر بصناعة الكلام لأن الكلام هو الوسيلة المثلى لنشر المبادئ السياسية والعقائد الدينية في زمن كثرت المذاهب واشتد الصراع بين زعمائها واحتدم الجدل بين أنصارها. فمست الحاجة إلى التمرس بالخطابة والمناظرة وإلى وضع أصول لها تتعلم أو يرجع إليها. وقد أشار الجاحظ إلى النشاط الذي بدأ يبذل في تعليم أسس الخطابة حيث يقول: «مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا في النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه». كما أشار إلى حاجة المتكلم الماسة إلى البيان لأنه مضطر للاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال.

وثمة سبب آخر دعا المتكلمين إلى الاهتمام بعلم البيان واللغة العربية، لأن اللغة العربية لغة القرآن الذي ينطوي على الوحي والشريعة وعلى قدر تضلعهم منها يكون إدراكهم لمعاني القرآن وتمكنهم من تأويل آياته وقد عبر الجاحظ عن هذه الناحية بقوله: «فللعرب أمثال وانتقادات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم. ولتلك الألفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخر. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك».

ويمكن إضافة سبب آخر حمل الجاحظ على وضع «البيان والتبيين» هو الرد على الشعوبية التي طعنت في بلاغة العرب وموهبتهم الخطابية. وقد كرس لهذه الغاية قسما لا بأس به من الكتاب (باب العصا في الجزء الثالث) .

وفي هذا الكتاب، يتحدث عن البيان والفصاحة، لكنه لم يقتصر عليهما بل انطلق يدعم آراءه وأفكاره بشواهد وقصص من حياة العرب وبعض أشعارهم، وعن حياة الموالي وكلامهم. كما برع في مجال الصوتيات اللغوية حين تحدث عن مخارج الحروف، وأثر اللثغة فيها وأثر سقوط الأسنان، ككلامه عن الحروف التي تدخلها اللثغة: القاف، السين، اللام.

وشرح نطقهم للثغات الأحرف فبيّن أن لثغة الراء تكون بالغين والذال والياء، والغين أقلها قبحا. ولثغة اللام ياء. ولثغة السين ثاء. ولثغة القاف طاء. ولثغة اللام ياء وآخرون يجعلون اللام كافا. ولثغة الراء ياء أو غين أو غين معجمة أو ذال أو ظاء معجمة أو ياء معجمة.

كما يشرّح اللسان وأحواله فيقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام يثقل عليه، ولم يبلغ حد الفأفأة والتمتمة. ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام. ويقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب. ويقال في لسانه حكلة أي نقصان آلة المنطق. وللصوت والحديث فيه جزء في مؤلفه لأنه آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف.

أما الإيماءات والحركات فلها دلالة بلاغية كدلالة الألفاظ ومقاصدها، إذ يعبر عن أن حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتقتّل والتثنّي وغير ذلك من الأمور.

وهذه الكتاب يضم صفحات مختارة من درة الجاحظ المسماة "البيان والتبيين".

أحمد رجب

باب البيان

حد البيان

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره.

وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مجلوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما.

وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم- حفظك الله- أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

أدوات البيان الخمس

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا.

قال أبو عثمان: وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخرّناه لبعض التدبير.

وقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى. والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين.

وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان.

وقال يونس بن حبيب: ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه أعنان السماء.

وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله.

وقال ابن التوأم: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.

والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو

الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها ... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره ... وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامته ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت. والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف.

وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتقتل والتثني، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور

قد قلنا في الدلالة بالإشارة. فأما الخط، فمما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ)، وأقسم به في كتابه المنزل، على نبيه المرسل، حيث قال: (ن. وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ)، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين. وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا.

وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام.

وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن.

والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره.

وأما القول في العقد، وهو الحساب دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل: (فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقال جل وتقدس: (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ)

وقال جل وعز: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ)

وقال:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ).

والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما، ومصلحة ونظاما.

وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان. ولذلك قال الأول:

«سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟

فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا» .

وقال بعض الخطباء: «أشهد أن السموات والأرض آيات وآلات وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية موسومة

بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك، التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر، ورجم الظنون. فهي على اعترافها لك، وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات ولا تحدك الأوهام، وإن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك» .

ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا. وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات.

وقال عنترة بن شداد العبسي جعل نعيب الغراب خبرا للزاجر:

حــرق الجنــاح كــأن لحيــي رأســه ... جلمــان بالأخبــار هــش مولــع

الحرق: الأسود. شبه لحييه بالجلمين، لأن الغراب يخبر بالفرقة والغربة ويقطع كما يقطع الجلمان. وأنشدني أبو الرديني العكلي، في تنسم الذئب الريح واستنشائه واسترواحه:

يســتخبر الــريح إذا لم يســمع ... بمثــل مقــراع الصــفا الموقــع

المقراع: الفأس التي يكسر بها الصخر. والموقع. المحدد. يقال وقعت الحديدة إذا حددتها. وقال آخر، وهو الراعي:

إن الســماء وإن الــريح شــاهدة ... والأرض تشــهد والأيام والبلــد

لقــد جزيــت بــني بــدر ببغــيهم ... يــوم الهبــاءة يومــا مــا لــه قــود

وقال نصيب في هذا المعنى، يمدح سليمان بن عبد الملك:

أقـــول لركـــب صــــادرين لقيـــتهم قفـا ذات أوشـال ومـولاك قـارب «١»

قفـــوا خـــبرونا عـــن ســـليمان إنـــني لمعروفـه مـن أهـل ودان طالـب «٢»

فعـــاجوا فـــأثنوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ولـو سـكتوا أثنـت عليـك الحقائـب

وهذا كثير جدا.

باب البلاغة

حد البلاغة

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على مُحَمَّد خاصة، وعلى أنبيائه عامة.

خبرني أبو الزبير كاتب مُحَمَّد بن حسان، وحدثني مُحَمَّد بن أبان- ولا أدري كاتب من كان- قالا:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة.

ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان

الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر.

قال: وقال مرة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر.

ثم قال: وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية. فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال.

***

مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون

وخالف عليه سهل بن هارون في ذلك، وكان سهل في نفسه عتيق الوجه، حسن الشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل التكشف. فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده وإن أدخل ذلك على حالة النقص.

قال سهل بن هارون: لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا، ولباسا نبيلا، وذا حسب شريفا، وكان الآخر قليلا قميئا، وباذّ الهيئة دميما، وخامل الذكر مجهولا، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذ

الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجب منه سببا للعجب به، ولصار الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد.

فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع. وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم به أكثر. والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي زهّد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم.

وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعا وأكثر في وجوه العلم تصرفا، وأخف مؤونة وأكثر فائدة ولذلك قدّم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التلبد وكان يقول: إذا كان الخليفة بليغا والسيد خطيبا، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين: إما رجلا يعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل، والإكبار والتبجيل، على قدر حالهما في نفسه، وموقعهما من قلبه، وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما، والخوف من أن يكون تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما، وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما حتى يفرط في الإشفاق، ويسرف في التهمة.

فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعا في أمره.

فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ فالبغض أيضا يعمي عن المحاسن. وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور، إلا عالم حكيم، ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا القويّ المنة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر.

وكان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة.

وإذا صرنا إلى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بني هاشم، وبلغاء رجال القبائل، قلنا في وصفهما على حسب حالهما، والفرق الذي بينهما ولأننا عسى أن نذكر جملة من خطباء الجاهليين والإسلاميين، والبدويين والحضريين، وبعض ما يحضرنا من صفاتهم وأقدارهم ومقاماتهم، وبالله التوفيق.

***

مفهوم البلاغة عند العرب

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول. قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحّار بن عياش العبديّ . ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال:

شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم:

يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر والرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل والله، إنا لنعلم أن الريح لتلقحه، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصبغه، وإن الحر لينضجه.

وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ. فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطئ ولا تخطئ.

وشأن عبد القيس عجب، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين:

ففرقة وقعت بعمان وشقّ عمان، وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشقّ البحرين، وهم من أشعر قبيل في العرب، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة. وهذا عجب.

ومن خطبائهم المشهورين: صعصعة بن صوحان، وزيد بن صوحان، وسيحان بن صوحان. ومنهم صحار بن عياش. وصحار من شيعة عثمان، وبنو صوحان من شيعة علي.

وإذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين، ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضرنا، وبالله التوفيق.

قال لي ابن الأعرابي : قال لي المفضل بن مُحَمَّد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

قال ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات.

فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.

تراجم البلغاء

إياس بن معاوية

ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء ممن كان لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل منهم: زيد بن صوحان. ومنهم: أبو واثلة إياس ابن معاوية المزنيّ ، القاضي القائف، وصاحب الزّكن، والمعروف بجودة الفراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة: «أنا وأنت لا نتفق. أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع» .

وأتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس، ورأوه أحمر دميما باذّ الهيئة، قشفا، فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا له: الذنب مقسوم بيننا وبينك، أتيتنا في زيّ مسكين، تكلمنا بكلام الملوك

ورأيت ناسا يستحسنون جواب إياس بن معاوية حين قيل له: ما فيك عيب غير أنك معجب بقولك. قال: أفأعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال:

فأنا أحقّ بأن أعجب بما أقول، وبما يكون مني منكم.

والناس، حفظك الله، لم يضعوا ذكر العجب في هذا الموضع.

والمعيب عند الناس ليس هو الذي لا يعرف ما يكون منه من الحسن.

والمعرفة لا تدخل في باب التسمية بالعجب، والعجب مذموم. وقد جاء في الحديث:

«إن المؤمن من ساءته سيئته وسرّته حسنته» . وقيل لعمر: فلان لا يعرف الشر. قال: «ذاك أجدر أن يقع فيه» . وإنما العجب اسراف الرجل في السرور بما يكون منه والإفراط في استحسانه، حتى يظهر ذلك في لفظه وفي شمائله. وهو الذي وصف به صعصعة بن صوحان، المنذر بن الجارود، عند علي بن أبي طالب رحمه الله، فقال: «أما إنه مع ذلك لنظار في عطفيه، تفّال في شراكيه، تعجبه حمرة برديه» .

قال أبو الحسن: قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال:

فتسمعون صوابا أم خطأ؟ قالوا: لا، بل صوابا. قال: «فالزيادة من الخير خير» . وليس كما قال، للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه.

وذكر الأصمعي أن عمر بن هبيرة لما أراده على القضاء قال: إني لا أصلح له. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنني عييّ، ولأني حديد. قال ابن هبيرة: أما الحدة فإن السوط يقوّمك، وأما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك أحدا، وأما العيّ فقد عبرت عما تريد.

فإن كان إياس عند نفسه عييا فذاك أجدر بأن يهجر الإكثار.

وبعد فما نعلم أحدا رمى إياسا بالعيّ، وإنما عابوه بالإكثار.

وذكر صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث، قال ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجاج ابن يوسف، وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا.

وقال قائل لإياس: لم تعجل بالقضاء؟ فقال إياس: كم لكفك من أصبع؟ قال: خمس. قال: عجلت. قال: لم يعجل من قال بعد ما قتل الشيء علما ويقينا. قال إياس: فهذا هو جوابي لك.

وكان كثيرا ما ينشد قول النابغة الجعدي:

أبى لي البلاء وأني امرؤ إذا ما تبينت لم أرتب

قال: ومدح سلمة بن عياش، سوار بن عبد الله ، بمثل ما وصف به إياس نفسه حين قال:

وأوقف عند الأمر ما لم يضح له ... وأمضى إذا ما شك من كان ماضيا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله، إلى عديّ بن أرطأة: إنّ قبلك رجلين من مزينة، فولّ أحدهما قضاء البصرة. يعني بكر بن عبد الله المزني وإياس بن معاوية. فقال بكر: والله ما أحسن القضاء، فإن كنت صادقا فما يحل لك أن توليني، وإن كنت كاذبا إنها لأحراهما.

ودخل الشام وهو غلام، فتقدّم خصما له، وكان الخصم شيخا كبيرا، إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضي: أتقدم شيخا كبيرا؟

قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحجتي. قال: لا أظنك تقول حقا حتى تقوم. قال: لا إله إلا الله، (أحقا أم باطلا؟) . فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته، فخبره بالخبر، فقال عبد الملك:

اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام، لا يفسد عليّ الناس.

فإذا كان إياس وهو غلام يخاف على جماعة أهل الشام، فما ظنك به وقد كبرت سنه، وعضّ على ناجذه.

وجملة القول في إياس أنه كان من مفاخر مضر، ومن مقدمي القضاة، وكان فقيه البدن، دقيق المسلك في الفطن، وكان صادق الحدس نقابا ، وكان عجيب الفراسة ملهما، وكان عفيف الطعم، كريم المداخل والشيم، وجيها عند الخلفاء، مقدما عند الأكفاء. وفي مزينة خير كثير.

***

عبد الله بن حفص

ومنهم عبيد الله بن مُحَّد بن حفص التيمي. ومُحَّد بن حفص هو ابن عائشة، ثم قيل لعبيد الله ابنه: ابن عائشة. وكان كثير العلم والسماع، متصرفا في الخبر والأثر. وكان من أجواد قريش، وكان لا يكاد يسكت، وهو في ذلك كثير الفوائد. وكان أبوه مُحَّد بن حفص عظيم الشأن، كثير العلم، بعث إليه ينخاب خليفته في بعض الأمر، فأتاه في حلقته في المسجد، فقال له في بعض كلامه: أبو من أصلحك الله؟ فقال له: هلا

عرفت هذا قبل مجيئك! وإن كان لا بد منه فاعترض من شئت فسله. فقال له: إني أريد أن تخليني. قال: أفي حاجة لك أم في حاجة لي؟ قال: بل في حاجة لي.

قال: فألقني في المنزل قال: فإن الحاجة لك. قال: ما دون إخواني ستر.

توشيح الخطب بآي القرآن والأشعار

وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة، وسلس الموقع.

قال الهيثم بن عديّ: قال عمران بن حطّان: إن أول خطبة خطبتها، عند زياد– أو عند ابن زياد– فأعجب بها الناس، وشهدها عمي وأبي. ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل، إلا أن تكون إلى الخلفاء.

وسمعت مؤمّل بن خاقان، وذكر في خطبته تميم بن مرّ، فقال: «إن تميما لها الشرف العود، والعز الأقعس، والعدد الهيضل. وهي في الجاهلية القدام، والذروة والسنام. وقد قال الشاعر:

فقلت له وأنكر بعض شأني ... ألم تعرف رقاب بني تميم

وكان المؤمّل وأهله يخالفون جمهور بني سعد في المقالة، فلشدة تحدّبه

على سعد وشفقته عليهم، كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم، وإن كان قوله خلاف قولهم، حدبا عليهم.

وكان صالح المريّ، القاص العابد، البليغ، كثيرا ما ينشد في قصصه وفي مواعظه، هذا البيت:

فبـــات يـــروّي أصـــول الفســـيل فعـــاش الفســـيل ومـــات الرجـــل

وأنشد الحسن في مجلسه، وفي قصصه وفي مواعظه:

لـــيس مـــن مـــات فاســـتراح بميـــت إنمـــا الميـــت ميـــت الأحيـــاء

وأنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، الخطيب القاص السجّاع، أما في قصصه، وأما في خطبة من خطبه، رحمه الله:

أرض تخيّرهـــا لطيـــب مقيلهـــا كعـــب بـــن مامـــة وابـــن أمّ دواد

جـــرت الـــرياح علـــى محـــلّ ديارهـــم فكـــأنهم كـــانوا علـــى ميعـــاد

فـــأرى النعـــيم وكـــلّ مـــا يلهـــى بـــه يومـــا يصـــير إلى بلـــى ونفـــاد

وقال أبو الحسن: خطب عبيد الله بن الحسن على منبر البصرة في العيد وأنشد في خطبته:

أيـــن الملـــوك عـــن حظّهـــا غفلـــت حـــتى ســـقاها بكـــأس المـــوت ســـاقيها

تلـــك المـــدائن بالآفـــاق خاليـــة أمســـت خـــلاء وذاق المـــوت بانيهـــا

قال: وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: «ما أشد فطام الكبير».

***

جهارة الصوت والتشديق في الخطب

وكانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادّقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغر الفم.

قال: وحدثني مُحَمَّد بن يسير الشاعر قال: قيل لأعرابي: ما الجمال؟

قال: طول القامة وضخم الهامة، ورحب الشدق، وبعد الصوت.

وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش، وكان جزع عليه جزعا شديدا، فقال: صف لي المخشّ. فقال: كان أشدق خرطمانيا، سائلا لعابه، كأنما ينظر من قلتين، وكأن ترقوته بوان أو خالفة، وكأن منكبه كركرة جمل ثفال. فقأ الله عينيّ إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله.

قال: وقلت لأعرابي: ما الجمال؟ قال: «غؤور العينين، واشراف الحاجبين، ورحب الشدقين» .

وقال دغفل بن حنظلة النسابة، والخطيب العلامة، حين سأله معاوية عن قبائل قريش، فلما انتهى إلى بني مخزوم قال: «معزى مطيرة، علتها قشعريره، إلا بني المغيرة، فإن فيهم تشادق الكلام، ومصاهرة الكرام» .

وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادق حتى مال بالقول شدقه ... وكل خطيب لا أبا لك أشدق

وأنشد أبو عبيدة:

وصلع الرؤوس عظام البطون ... رحاب الشداق غلاظ القصر «٥»

قال: وتكلم يوما عند معاوية الخطباء فأحسنوا، فقال: والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق! قم يا يزيد فتكلم.

وهذا القول وغيره من الأخبار والأشعار، حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم الأشدق للفقم ولا للفوه.

وقال يحيى بن نوفل، في خالد بن عبد الله القسري:

بلّ السراويل من خوف ومن وهل ... واستطعم الماء لما جدّ في الهرب

وألحن الناس كلّ الناس قاطبة ... وكان يولع بالتشديق في الخطب

ويدلّك على تفضيلهم سعة الأشداق، وهجائهم ضيق الأفواه، قول الشاعر:

لحى الله أفواه الدّبى من قبيلة ... إذا ذكرت في النائبات أمورها

وقد كان العباس بن عبد المطلب جهيرا جهير الصوت. وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله.

فتراجع القوم، وأنزل الله عزّ وجلّ النصر وأتى بالفتح.

ابن الكلبيّ عن أبيه عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء.

قال الله عز وجل: (وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً)، فالتصدية: التصفيق. والمكاء: الصفير أو شبيه بالصفير. ولذلك قال عنترة:

وحليـــل غانيـــة تركـــت مجـــدلا تمكـــو فريصـــته كشـــدق الأعلـــم

***

بشر بن المعتمر يقنن أصول البلاغة

مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السّكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظّارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام:

"خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكلّ عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع. وأعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

وإياك والتوعّر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة.

وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المال. وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفعم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام".

قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

قال أبو عثمان : أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا

ساقطا سوقيا. وإذا سمعتموني أذكر العوامّ فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال. وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل الببر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأشباه الزنج. وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم. والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا. على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا.

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر، وإلى ما ذكر من الأقسام.

قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك، بصيرا بما عليك وما لك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتليت بأن تتكلّف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليتلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة

والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة. فهذا هذا.

وقال: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

فإن كان الخطيب متكلما تجنّب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق

أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء. وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكلّ خلف، وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك. وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل، والبسيط، والمديد، والوافر، والكامل، وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد والأسباب، والخرم والزحاف. وقد ذكرت العرب في أشعارها السناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع بالإيطاء. وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب، وذكروا حروف الرويّ والقوافي، وقالوا هذا بيت وهذا مصراع.

وكما سمى النحويون، فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك، لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم.

قالوا: وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين، أو على منبر جماعة، أو في سدة دار الخلافة، أو في يوم جمع وحفل، أما في إصلاح بين العشائر، واحتمال دماء القبائل، واستلال تلك الضغائن والسخائم، فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن، رفيع المكان: «ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّن لهم، لاشاهم فتلاشوا»

ولولا أن المتكلم افتقر إلى أن يلفظ بالتلاشي لكان ينبغي أن يؤخذ فوق يده.

وخطب آخر في وسط دار الخلافة، فقال في خطبته: «وأخرجه الله من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية» .

وقال مرة أخرى في خطبة له: «هذا فرق ما بين السارّ والضارّ، والدفاع والنفاع» .

وقال مرة أخرى: «فدلّ ساتره على غامره، ودل غامره على منحله»

.

فكاد إبراهيم بن السّندي يطير شققا، وينقد غيظا. هذا وإبراهيم من المتكلمين، والخطيب لم يكن من المتكلمين.

وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني. وقد تحسن أيضا ألفاظ المتكلمين في مثل شعر أبي نواس وفي كل ما قالوه على وجه التظرّف والتملّح، كقول أبي نواس:

وذات خـــــــد مـــــــورّد	قوهيـــــــــة المتجـــــــــرد
تأمّـــــــل العـــــين منهـــــا	محاســـــنا لـــــيس تنفـــــد
فبعضـــــها قـــــد تنـــــاهى	وبعضـــــــــها يتولـــــــــد
والحســـــن في كـــــل عضـــــو	منهـــــا معـــــاد مـــــردد

وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية، كقول العماني للرشيد، في قصيدته التي مدحه فيها:

مـــن يلقــه مـــن بطـــل مســـرند   في زغفـــــة محكمـــــة بالســـــرد

تجول بين رأسه والكرد يعني العنق.

طبقات الكلام

وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلم ذكروا العييّ والبكيء، والحصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدّق، والمتفيهق، والمهمار، والثرثار، والمكثار والهمار، ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط وقالوا: رجل تلقّاعة، وفلان يتلهيع في خطبته وقالوا: فلان يخطىء في جوابه، ويحيل في كلامه، ويناقض في خبره. ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء.

وأنا أقول: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء.

وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني. كما أن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا. وإنما الكرب الذي يختم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا. وكان مُحَمَّد بن عباد بن كاسب يقول: والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط.

ومتى سمعت– حفظك الله– بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب، والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم. وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق.

ولأهل المدينة ألسن ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبارة جيدة. واللحن في

عوامهم فاش، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب.

واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر. وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد. وكما يستملحون اللثغة إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح.

وربما كان اسم الجارية غليّم أو صبيّة أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزا شهلة، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالا وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت؟ ويا صبية كيف أمسيت.

ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو وذهبت أم حكيم. نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى وقد فسرنا ذلك كله في كتاب الأسماء والكنى، والألقاب والأنباز :

وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أمغطّى مني على بصر للـ ... حب أم أمنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وأحلى الحديث ما كان لحنا

***

وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعانى. ويقولون: أصاب الحق في الجملة. ويقولون: قرطس فلان، وأصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول. فإن قالوا: رمى فأصاب الغرّة، وأصاب عين القرطاس، فهو الذي ليس فوقه أحد.

ومن ذلك قولهم: فلان يفلّ الحزّ، ويصيب المفصل، ويضع الهناء مواضع النقب.

وقال زرارة بن جزء، حين أتى عمر بن الخطاب رحمه الله فتكلم عنده ورفع حاجته إليه.

أتيــــت أبا حفـــص ولا يســـتطيعه ... مـــن النـــاس إلا كالســـنان طريـــر

فـــوفقني الـــرحمن لمـــا لقيتـــه ... وللبـــاب مـــن دون الخصـــوم صـــرير

قـــروم غيـــارى عنـــد باب ممنّـــع ... تنـــازع ملكـــا يهتـــدي ويجـــور

فقلـــت لـــه قـــولا أصـــاب فـــؤاده ... وبعـــض كـــلام النـــاطقين غـــرور

وفي شبيه بذلك يقول عبد الرحمن بن حسان حيث يقول:

رجـــال أصـــحاء الجلـــود مـــن الخنـــا ... وألســـنة معروفـــة أيـــن تـــذهب

وفي إصابة فصّ الشيء وعينه، يقول ذو الرمة في مديح بلال بن أبي بردة الأشعري:

تنــاخي عنــد خــير فــتى يمــان | إذا النكبــاء عارضــت الشــمالا
وخــيرهم مــآثر أهــل بيــت | وأكــرمهم وإن كرمــوا فعــالا
وأبعــدهم مســافة غــور عقــل | إذا مــا الأمــر في الشــبهات عــالا
ولــبّس بــين أقــوام فكــل | أعــدّ لــه الشــغازب والمحــالا
وكلهــم ألــدّ لــه كظــاظ | أعــدّ لكــل حــال القــوم حــالا
فصــلت بحكمــة فأصــبت منهــا | فصــوص الحــق فانفصــل انفصــالا

ومما قالوا في الإيجاز، وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة، قول ثابت فطنة:

مــا زلــت بعــدك في هــم يجــيش بــه | صــدري وفي نصــب قــد كــاد يبليــني
لا أكثــر القــول فيمــا يهضــبون بــه | مــن الكــلام، قليــل منــه يكفيــني
إني تــذكرت قتلــى لــو شــهدتهم | في غمــرة المــوت لم يصــلوا بهــا دوني

وقال رجل من طي ومدح كلام رجل فقال: «هذا كلام يكتفى بأولاه، ويشتفى بأخراه» .

وقال أبو وجزة السعدي، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل:

يكفــي قليــل كلامــه وكثــيره | ثبــت إذا طــال النضــال مصــيب

الفصاحة واللحن

قال أبو عثمان: والعتّابيّ حين زعم أن كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ فلم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه. ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هذه الأتان؟ قال: «اركبها وتلد لي» . وقد علمنا أن معناه كان صحيحا.

وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي حين قال لأهل مجلسه: «ما من شر من دين» وإنه قال حين قيل له: ولم ذاك يا أبا فلان؟ قال: «من جرّى يتعلقون» وما نشك أنه قد ذهب مذهبا، وأنه كما قال.

وقد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ قال: «شريكانا في هوازها، وشريكانا في مداينها. وكما تجيء نكون» . قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها.

وقلت لخادم لي: في أي صناعة أسلموا هذا الغلام؟ قال: «في أصحاب سند نعال» يريد: في أصحاب النعال السندية. وكذلك قول

الكاتب المغلاق للكاتب الذي دونه: «اكتب لي قل خطين وريحني منه» .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والاغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بيانا. وكيف يكون ذلك كله بيانا، ولولا طول مخالطه السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام، لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من إرادته. وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع.

وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء. وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا: «مكره أخاك لا بطل» . و: «إذا عز أخاك فهن» ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم: ذهبت إلى أبو زيد، ورأيت أبي عمرو. ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه، لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان. لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت، وأطردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة، وفي تلك الجيرة.

ولقد كان بين زيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة، وبينه يوم مات بون بعيد، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة، وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين.

وزعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج، وكان– زعموا– لا يبرّئهما من اللحن. وزعم أبو العاصي أنه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه، وفيما يجري بينه وبين الناس، إلا ما تفقده من أبي زيد النحوي، ومن أبي سعيد المعلم.

وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي: «كيف أهلك» قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلبا. لأنه أجابه على فهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله.

وسمعت ابن بشير وقال له أبو الفضل العنبريّ: إني عثرت البارحة بكتاب، وقد التقطته، وهو عندي، وقد ذكروا أن فيه شعرا، فإن أردته وهبته لك. قال ابن بشير: أريده إن كان مقيّدا. قال: والله ما أدري أمقيّد هو أم مغلول. ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته.

وحكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية: من خلقك؟ وجزم القاف، فلم يدر ما قال، ولم يجبه، فرد عليه السؤال فقال الغلام: لعلك تريد من خلقك.

وكان بعض الأعراب إذا سمع رجلا يقول نعم في الجواب، قال: «نعم وشاء؟» ، لأن لغته نعم. وقيل لعمر بن لجأ: قل «إنا من المجرمين منتقمين» . قال: (إنّا من المجرمين منتقمون).

***

مديح اللسان

ذكر ما قالوا في مديح اللسان بالشعر الموزون واللفظ المنثور، وما جاء في الأثر وصح به الخبر.

قال الشاعر:

أرى الناس في الأخلاق أهل تخلق ... وأخبارهم شتى فعرف ومنكر

قريبا تدانيهم إذا ما رأيتهم ... ومختلفا ما بينهم حين تخبر

فلا تحمدن الدهر ظاهر صفحة ... من المرء ما لم تبل ما ليس يظهر

فما المرء إلا الأصغران: لسانه ... ومعقوله، والجسم خلق مصور

وما الزين في ثوب تراه وإنما ... يزين الفتى مخبوره حين يخبر

فإن طرّة راقتك منه فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر

ويقولون: «كأن لسانه لسان ثور» .

وحدثني من سمع أعرابيا يمدح رجلا برقة اللسان فقال: «كأن والله لسانه أرق من ورقة، وألين من سرقة»

وقال النبي صلّى الله عليه وآله لحسان بن ثابت: ما بقي من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته. ثم قال: «والله ما يسرني به مقول من معد، والله إن لو وضعته على حجر لفلقه، أو على شعر لحلقه».

قال: وسمعت أعرابيا يصف بلسانه رجل، فقال: «كان يشول بلسانه شولان البروق، ويتخلل به تخلل الحية» . وأظن هذا الأعرابي أبا الوجيه العكليّ.

يشول: يرفع. البروق: الناقة إذا طلبت الفحل فإنها حينئذ ترفع ذنبها.

وإنما سمي شوّال شوّالا لأن النوق شالت بأذنابها فيه. فإن قال قائل: قد يتفق أن يكون شوّال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه، فلم بقي هذا الاسم عليه، وقد ينتقل ما له لزم عنه، قيل له: إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فيه، فبقي عليه كالسمة، وكذلك رمضان إنما سمي لرمض الماء فيه وهو في شدة الحر، فبقي عليه في البرد. وكذلك ربيع، إنما سمي لرعيهم الربيع فيه، وإن كان قد يتفق هذا الاسم في وقت البرد والحر.

قال: ووصف أعرابي رجلا فقال: أتيناه فأخرج لسانه كأنه مخراق لاعب.

قال وقال العباس بن عبد المطلب للنبي صلّى الله عليه وآله: يا رسول الله، فيم الجمال؟ قال: في اللسان.

قال: وكان مجاشع بن دارم خطيبا سليطا، وكان نهشل بكيئا منزورا، فلما خرجا من عند بعض الملوك عذله مجاشع في تركه الكلام، فقال له نهشل: إني والله لا أحسن تكذابك ولا تأثامك، تشول بلسانك شولان البروق، وتخلل الباقرة.

وقالوا: أعلى جميع الخلق مرتبة الملائكة، ثم الإنس، ثم الجن.

وإنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل، وبالاستطاعة على التصرف، وبالمنطق.

قال: وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة.

باب الصمت

كان أعرابي يُجالس الشَّعبي يُطيل الصمت، فسُئل عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم. وقالوا: لو كان الكلام من فِضة لكان السكوت من ذهب. وقالوا: مَقتل المرء بين لَحَييه وفكَّيه. وأخذ أبو بكر الصدِّيق، ﷺ، بطرف لسانه وقال: هذا الذي أوردني الموارد. وقالوا: ليس شيءٌ أحقَّ بطول سجن من لسان. وقالوا: اللسان سبُعٌ عَقور.

وقال النبي ﷺ: «وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم.»

وقال ابن الأعرابي عن بعض أشياخه: تكلَّم رجل عند النبي ﷺ فخطل في كلامه، فقال النبي ﷺ: «ما أُعطيَ العبد شرًّا من طلاقة اللسان.»

وقال العايشي وخالد بن خداش، حدَّثنا مهدي بن ميمون، عن غيلان بن جرير، عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قَدِمنا على رسول الله ﷺ في وفد، فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطوَلنا علينا طَولًا، وأنت الجَفنة الغرَّاء. فقال النبي ﷺ: «أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزَّنكم الشيطان؛ فإنما أنا عبد الله ورسوله.»

وقال خالد بن عبد الله القَسْري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: من كانت الخلافة زانَته فقد زِنتَها، ومن شرَّفَته فقد شرَّفتَها؛ فأنت كما قال

الشاعر:

وتَزِيــــدينَ أطيَــــبَ الطِّيــــبِ طِيبًـــا   أنْ تَمَسِّــــيه أيــــنَ مِثلُـــك أيْنــــا

وإذا الــــدُّرُّ زانَ حُسْــــنَ وُجــــوهٍ   كــان للــدُّرِّ حُسْــنُ وَجهِــك زَيْنــا

فقال عمر: إن صاحبكم أُعطيَ مَقولًا، ولم يُعطَ معقولًا. وقال الشاعر:

لســانُك معســولٌ ونفسُــك شَــحَّةٌ   ودُونَ الثُّــريَّا مِــن صــديقِك مالُكــا

وأخبرنا بإسناد له أن ناسًا قالوا لابن عمر: ادعُ الله لنا بدعوات. فقال: اللهم ارحمنا وعافِنا وارزقنا. فقالوا: لو زِدتنا يا أبا عبد الرحمن. قال: نعوذ بالله من الإسهاب.

وقال أبو الأسود الدؤلي في ذكر الإسهاب، يقولها في الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، والحارث هو القُباع، وكان خطيبًا من وجوه قريش ورجالهم، وإنما سُمِّي القُباع لأنه أتي بمكتل لأهل المدينة، فقال: إن هذا المكتل لَقُباع. فسُمِّي به، والقُباع: الواسع الرأس القصير. وقال الفرزدق لجرير:

وقبْلَــكَ مــا أعيَيْــتُ كاسِــرَ عينِــه   زيادًا فلــمْ تَقــدِرْ علــيَّ حبائلُــه

فأقســمتُ لا آتيــه تِســعينَ حِجَّــةً   ولــو كُسِــرتْ عُنْــقُ القُبــاعِ وكاهلُــه

قال أبو الأسود:

أمــيرَ المــؤمِنِين جُزيــتَ خــيرًا   أرِحْنــا مــن قُبــاعِ بَــنِي المُغِــيرةْ

بَلَــــوناه فلُمْنـــــاه فأعْيـــــا عليـنـــا مـــا يُمِـــرُّ لنـــا مَريـــرةْ

علـــى أنَّ الفـــتى نِكْـــحٌ أكُـــولٌ ومِســــهابٌ مَذاهبُـــه كثــــيرةْ

وقال الشاعر:

إيَّاكَ إيَّاكَ المِـــراءَ فإنَّـــه إلى الشـــرِّ دعَّـــاءٌ وللصَّـــرمِ جالـــبُ

وقال أبو العتاهية:

والصـــمتُ أجمَـــلُ بالفـــتى مـــن مَنطـــقٍ في غـــيرِ حِينِـــه

كـــلُّ امـــرئٍ في نفسِـــه أعلـــى وأشـــرَفُ مـــن قَرينِـــه

وكان سهل بن هارون يقول: سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة، كما أن التوقِّي على الدواء أشدُّ من الدواء.

وكانوا يأمرون بالتبيُّن والتثبُّت، وبالتحرُّز من زلل الكلام، ومن زلل الرأي، ومن الرأي الدَّبَري. والرأي الدَّبَري هو الذي يَعرِض من الصواب بعد مُضيِّ الرأي الأول وفوت استدراكه. وكانوا يأمرون بالتحلُّم والتعلُّم، وبالتقدُّم في ذلك أشد التقدم. وقال الأحنف، قال عمر بن الخطاب ﷺ: تفقَّهوا قبل أن تسودوا. وكان يقول ﷺ: السُّؤدد مع السَّواد. وأنشدوا لكُثيِّر عزَّة:

وفي الحِلـــمِ والإســـلامِ للمـــرءِ وازعٌ وفي تـركِ طاعـاتِ الفـؤادِ المُتـيَّمِ

بصـــائرُ رُشـــدٍ للفـــتى مُســـتبِينةٌ وأخـــلاقُ صِـــدقٍ عِلمُهـــا بالـــتعلُّمِ

الوازِع: الناهي. والوزَعة: جمع وازع، وهم الناهون والكافُّون.

وقال الأفوه الأودي:

أضْحتْ قرينةُ قد تَغيَّرَ بِشرُها ... وتجهَّمتْ بتَحيَّةِ القومِ العِدا

ألوَتْ بإصبعِها وقالت إنَّما ... يَكفِيكَ ممَّا لا ترى ما قد ترى

وأنشد:

ابدَأ بنَفْسِك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حَكيمُ

فهُناك تُعذَرُ إنْ وعظتَ ويُقتدى ... بالقولِ منك ويُقبَلُ التعليمُ

قالوا: وكان الأحنف أشد الناس سلطانًا على نفسه، وكان الحسن أترك لما نُهي عنه. وقال الآخر:

لا تَعذِراني في الإساءةِ إنَّه ... شرُّ الرجالِ من يُسيءُ فيُعذَرُ

وقال الكُميت بن زيد الأسدي:

ولم يُقَلْ بعدَ زلَّةٍ لهُمُ ... عندَ المَعاذيرِ إنَّما حَسِبوا

وأنشدني الأحوص بن مُحَمَّد:

قامت تُخاصِرُني بقُنَّتِها ... خَودٌ تأطَّرُ غادةٌ بِكْرُ

كلٌّ يرى أنَّ الشبابَ ... له في كلِّ مُبلِغِ لذَّةٍ عُذرُ

تخاصرني: آخذ بيدها وتأخذ بيدي. والقُنة: المواضع الغليظة من الأرض في صلابة. الخود: الحسنة الخلق. تأطر: تتثنى. والغادة: الناعمة اللينة.

وقال جرير في فوت الرأي:

ولا يتَّقــونَ الشــرَّ حــتى يُصــيبَهم   ولا يَعرِفــونَ الأمــرَ إلا تَــدبُّرا

ومدح النابغة ناسًا بخلاف هذه الصفة، فقال:

ولا يَحسَــبونَ الخــيرَ لا شــرَّ بعــدَه   ولا يَحسَــبونَ الشــرَّ ضــربةَ لازِبِ

(اللازب واللازم واحد، واللازب في مكانٍ آخر: اليابس، قال الله عز وجل: مِنْ طِينٍ لَازِبٍ. واللزبات: السِّنون الجَدبة).

وأنشد:

هفــا هَفــوةً كانــت مــن المــرءِ   بدعــةً ومــا مِثلُــه مــن مِثلِهــا بسَــليمِ

فــإنْ يــكُ أخطــا في أخــيكم   فرُبَّمــا أصــابَ الــتي فيهــا صــلاحُ تَمــيمِ

وقال قائل عند يزيد بن عمر بن هُبيرة: والله ما أتى الحارث بن شريح بيوم خير قط. فقال له التَّرجمان بن هُزيم: إلا يكُن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر. وذهب الترجمان بن هزيم إلى مِثل معنى قول الشاعر:

ومــا خُلِقــتْ بَنُــو زِمَّــانَ إلا   أخــيرًا بعــدَ خَلــقِ النــاسِ طُــرًّا

ومــا فعلــتْ بنــو زِمَّــانَ خــيرًا   ولا فعلــتْ بَنُــو زِمَّــانَ شَــرًّا

ومن هذا الجنس من الأحاديث، وهو يدخل في باب المُلَح، قال الأصمعي: وصلت بالعلم، ونِلت بالمُلَح. قال رجلٌ مرةً: أبي الذي قاد الجيوش، وفتح الفتوح، وخرج على الملوك، واغتصب المنابر. فقال له رجل من القوم: لا جَرم، لقد أُسِر وقُتِل وصُلِب. فقال له المفتخِر بأبيه: دعني

من أسْر أبي وقتله وصلبه، أبوك أنت حدَّث نفسه بشيء من هذا قط؟

قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يُناسبانك بعض المناسبة، ويُشاكِلانك في بعض المشاكلة. ولا تُهمِل طبيعتك فيستوليَ الإهمال على قوة القريحة، ويستبدَّ بها سوء العادة. وإن كنت ذا بيان، وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المُنة يوم الحفل، فلا تُقصِّر في التماس أعلاها سورة، وأرفعها في البيان منزلة، ولا يقطعنَّك تهييبُ الجُهلاء، وتخويف الجُبناء، ولا تصرفنَّك الروايات المعدولة عن وجوهها، والأحاديث المتناولة على أقبح مخارجها.

وكيف تُطيعهم بهذه الروايات المعدولة، والأخبار المدخولة، وبهذا الرأي الذي ابتدعوه من قِبل أنفسهم، وقد سمعتَ الله تبارك وتعالى ذكر داود النبي صلوات الله عليه، فقال: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إلى قوله: وَفَصْلَ الْخِطَابِ؟ فجمع له بالحكمة البراعةَ في العقل، والرجاحةَ في الحِلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحكم، وجمع له بفصل الخطاب تفصيلَ المُجمَل، وتخليص المُلتبِس، والبصر بالحز في موضع الحز، والحسم في موضع الحسم. وذكر رسول الله ﷺ شُعيبًا النبي عليه السلام، فقال: «كان شُعيبٌ خطيب الأنبياء.»

وذلك عند بعض ما حكاه الله عنه في كتابه، وحلاه لأسماع عباده، فكيف تهاب منزلة الخُطباء وداودُ عليه السلام سلفُك، وشُعيب إمامك، مع ما تلَونا عليك في صدر هذا الكتاب من القرآن الحكيم، والآي الكريم؟

وهذه خُطَب رسول الله ﷺ مدوَّنة محفوظة، ومخلَّدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وقد كان لرسول الله شعراء يُنافحون عنه وعن أصحابه بأمره، وكان ثابت بن قيس بن الشمَّاس الأنصاري خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد.

فأما ما ذكرتم من الإسهاب والتكلُّف، والخطل والتزيُّد، فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلَّف، وإلى الخطل المتزيَّد، فأما أرباب الكلام، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المُعاوِدون، وأصحاب التحصيل والمحاسبة، والتوقِّي والشفقة، والذين يتكلمون في صلاح ذات البَين، وفي إطفاء نائرة، أو في حمالة، أو على مِنبر جماعة، أو في عقد إملاك بين مسلم ومسلمة، فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة والمراء، وإلى الهذر والبذاء، وإلى النفج والرياء؟ ولو كان هذا كما يقولون لكان علي بن أبي طالب وعبد الله بن عبَّاس، ﷺ، أكثر الناس فيما ذكرتم، فلِمَ خطب صَعصَعة بن صُوحان عند علي بن أبي طالب، وقد كان ينبغي للحسن البصري أن يكون أحق التابعين بما ذكرتم؟

قال الأصمعي: قيل لسعيد بن المُسيب: ها هنا قومٌ نُسَّاك يعيبون إنشاد الشعر. قال: نسَكوا نُسكًا أعجميًّا.

وزعمتم أن رسول الله ﷺ قال: «شُعبتانِ من شُعَب النفاق؛ البذاء والبيان، وشُعبتانِ من شُعَب الإيمان؛ الحياء والعِي.»

ونحن نعوذ بالله من العي، ونعوذ بالله أن يكون القرآن يحثُّ على البيان ورسولُ الله ﷺ يحثُّ على العي، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ

بين البذاء والبيان، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوَز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصر عن المقدار؛ فالعيُّ مذموم، والخطل مذموم، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصِّر والغالي.

وها هنا رواياتٌ كثيرة مدخولة، وأحاديث معلولة. وروَوا أن رجلًا مدح الحياء عند الأحنف، وأن الأحنف قال: بمَ يعود ذلك ضعفًا والخيرُ لا يكون سببًا للشر؟ ولكنا نقول: إن الحياء اسم لمقدار من المقادير، ما زاد على ذلك المقدار فسمِّه ما أحببت. وكذلك الجود اسم لمقدار من المقادير؛ فالسَّرَف اسم لما فضَل عن ذلك المقدار. وللحزم مقدار؛ فالجبن اسم لما فضل عن ذلك المقدار. وللاقتصاد مقدار؛ فالبخل اسم لما خرج عن ذلك المقدار. وللشجاعة مقدار، فالتهوُّر والخَور اسم لما جاوَز ذلك المقدار.

وهذه الأحاديث ليست لعامتها أسانيد متَّصلة، فإن وجدتَها متَّصلة لم تجدها محمودة، وأكثرها جاءت مطلقة ليس لها حاملٌ محمود ولا مذموم؛ فإذا كانت الكلمة حسنةً استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن.

فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتُنسَب إلى هذا الأدب، فقرضت قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألَّفت رسالة؛ فإيَّاك أن تدعوَك ثقتك بنفسك، ويدعوَك عُجبُك بثمرة عقلك، إلى أن تنتحله وتدَّعيه، ولكن اعرضْه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب؛ فإن رأيت الأسماع تُصغي له، والعيون تحدج إليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه، فانتحِلْه؛ فإن كان ذلك في ابتداء أمرك، وفي أول تكلُّفك، فلم ترَ له طالبًا

ولا مُستحسِنًا، فلعله أن يكون – ما دام ريِّضًا قضيبًا – تعنيسًا أن يحلَّ عندهم محل المتروك؛ فإن عاودت أمثال ذلك مرارًا، فوجدت الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخُذ في غير هذه الصناعة، واجعل رائدك الذي لا يكذبك حِرصَهم عليه أو زهدهم فيه. وقال الشاعر:

إنَّ الحـــديثَ تَغُـــرُّ القـــومَ خَلْوتُـــه ... حـــتى يُلِـــجَّ بهـــم عِـــيٌّ وإكثـــارُ

وفي المثل المضروب: «كل مُجرٍ في الخلا مُسَرٌّ.» ولم يقولوا مسرور، وكلٌّ صواب.

فلا تثق في كلامك برأي نفسك؛ فإني ربما رأيت الرجل مُتماسكًا وفوق المُتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره، وفي كلامه، وفي ابنه، رأيته مُتهافتًا وفوق المُتهافت.

وكان زُهير بن أبي سُلمى، وهو أحد الثلاثة المُتقدمين، يُسمِّي كبار قصائده «الحَوليَّات». وقال نوح بن جرير، قال الحُطيئة: خير الشعر الحَوليُّ المنقَّح. وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب الناس: إني والله ما أُرسلُ الكلام قضيبًا خشيبًا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكَّك.

وكنت أظن أن قولهم «محكَّك» كلمةٌ مولَّدة، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكناني:

أبلِـــغْ فَـــزارةَ أنَّ الـــذِّئبَ آكِلُهـــا ... وجـــائعٌ سَـــغِبٌ شـــرٌّ مـــن الـــذِّيبِ

أَدَلُّ أطلَـــسُ ذو نفْـــسٍ مُحَكَّكَـــةٍ ... قـــد كـــان طـــارَ زمـــانًا في اليَعاســـيبِ

وتكلَّم يزيد بن أبان الرقاشي ثم تكلَّم الحسن، وأعرابيان حاضران،

فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلَين؟ قال: أما الأول فقاصٌّ مُجيد، وأما الآخر فعربيٌّ محكِّك. ونظر أعرابي إلى الحسن، فقال له رجل: كيف تراه؟ قال: أرى خيشومَ حُر.

وأرادوا عبد الله بن وهب الراسبي على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرياسة، فقال: وما أنا والرأيَ الفطير، والكلام القضيب؟ ولما فرغوا من البيعة له قال: دعوا الرأي يغبَّ؛ فإن غُبوبه يكشف لكم عن محضه. وقيل لابن التوءم الرقاشي: تكلَّمْ. فقال: ما أشتهي الخبز إلا بائتًا. وقال عُبيد الله بن سالم لرؤبة: مُت يا أبا الجحاف إذا شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت اليوم عُقبة بن رؤبة يُنشد شعرًا له أعجبني. فقال رؤبة: نعم إنه ليقول، ولكن ليس لشِعره قِران. وقال الشاعر:

مَهاذبــــةٌ مَناجبــــةٌ قِــــرانٌ مَنادبــــةٌ كــــأنَّهم الأُســــودُ

يريد بقوله: قِران، التشابه والموافقة.

وقال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبمَ ذاك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه. وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي فقال: مِطرفٌ بآلاف، وخِمار بوافٍ. وكان الأصمعي يفضِّله من أجل ذلك، وكان يقول: الحُطيئة عبدٌ لشعره. عاب شِعره حين وجده كله متخيَّرًا منتخَبًا مُستويًا، لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه. وقالوا: لو كان شعر صالح بن عبد القُدُّوس.

وسابق البَربري كان مفرَّقًا في أشعارٍ كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن

القصيدة إذا كانت كلها أمثالًا لم تَسِر ولم تجرِ مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع. وقال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول في كل ساعة قصيدةً، وأنت تقرضها في كل شهر، فلِمَ ذلك؟ قال: لأني لا أقبل من شيطاني مِثل الذي تقبل من شيطانك.٧ قالوا: وأنشد عُقبة بن رؤبة أباه رؤبة بن العجَّاج شعرًا، وقال له: كيف تراه؟ قال له: يا بُنيَّ، إن أباك ليَعرِض له مِثل هذا يمينًا وشمالًا فما يلتفت إليه.

وقد روَوا ذلك في زُهير وابنه كعب.

وقيل لعقيل بن عُلَّفة: لِمَ لا تُطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل لأبي المهوس: لِمَ لا تُطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثل النادر إلا بيتًا واحدًا، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتًا واحدًا. وقال مَسلمة بن عبد الملك لنُصَيب: يا أبا الحجناء، أمَا تُحسِن الهجاء؟ قال: أمَا تراني أحسن مكان «عافاك الله» «لا عافاك الله»؟ ولاموا الكُميت بن زيد على الإطالة، فقال: أنا على القِصار أقدر. وقيل للعجَّاج: ما لك لا تُحسِن الهجاء؟ قال: هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر؟ وقال رؤبة: الهدم أسرع من البناء.

وهذه الحُجج التي ذكروها عن نُصيب والكُميت والعجَّاج ورؤبة، إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم، وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة. وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام؛ ويكون له طبيعة في التجارة وليست له طبيعة في الفِلاحة، ويكون له طبيعة في الحُداء أو في التعبير أو في القراءة بالألحان وليس له طبيعة في الغناء،

وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون، ويكون له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السرناي، ويكون له طبيعة في قصبة الراعي ولا يكون له طبيعة في القصبتَين المضمومتين، ويكون له طبع في صناعة اللحون ولا يكون له طبع في غيرها، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومِثل هذا كثير جدًّا.

وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يُذكَر مِثله. وقيل لابن المقفع في ذلك، فقال: الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه. وهذا الفرزدق وكان مُشتهرًا بالنساء، وكان زير غوانٍ، وهو في ذلك ليس له بيتٌ واحد في النسيب مذكور، ومع حسده لجرير، وجرير عفيف لم يعشق امرأةً قط، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرًا. وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما كجرير وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحُميد الأرقط، والعماني. وليس الفرزدق في طواله بأشعر منه في قصاره. وفي الشعراء من يخطب، وفيهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قرض الشعر، وشاعرٌ نفسه قد تختلف حالاته. وقال الفرزدق: أنا عند الناس أشعر الناس، وربما مرَّت عليَّ ساعة ونزعُ ضِرسي أهوَنُ عليَّ من أن أقول بيتًا واحدًا. وقال العجَّاج: لقد قلت أرجوزتي التي أولها:

بكَيــــتُ والمُحتــــزَنُ البَكِــــيُّ وإنَّمــــا يأتي الصِّــــبا الصــــبيُّ

أطَــــرَبًا وأنــــت قَنسَــــريُّ والــــدهرُ بالإنســــانِ دوَّاريُّ

وأنا بالرمل، فانثالت عليَّ قوافيها انثيالًا، وإني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه. وقال لي أبو يعقوب الخزيمي: خرجت من منزلي أريد الشمَّاسية، فابتدأت القول في مرثية لأبي التَّختاخ، فرجعت والله وما أمكنني بيتٌ واحد.

وقال الشاعر:

وقــد يَقــرِضُ الشِّــعرَ البَكــيءُ لســانُه   وتُعيِــي القــوافي المــرءَ وهْــو خَطيــبُ

باب من الخُطب القِصار

من خُطَب السلف ومواعظ النُّسَّاك وتأديب من تأديب العلماء

قال رجل لأبي هُريرة النحوي: أريد أن أتعلَّم العلم وأخاف أن أضيِّعه. قال: كفى بترك العلم إضاعةً. وسمع الأحنف رجلًا يقول: التعلُّم في الصِّغر كالنقش في الحجر. فقال الأحنف: الكبير أكبر الناس عقلًا، ولكنه أشغل قلبًا. وقال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهالكم لا يتعلمون؟

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالمٌ اتَّخذ الناس رؤساء جهالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا.»

ولذلك قال عبد الله بن عبَّاس، رضي الله تعالى عنهما، حين دلَّى زيد بن ثابت في القبر: من سرَّه أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر؛ فهكذا ذهابه.

وقال بعض الشعراء لبعض العلماء:

أبْعَدتَ من يومِكَ الفِرارَ فما ... جاوَزتَ حيثُ انتهى بكَ القَدَرُ

لو كان يُنجِي من الرَّدى ... حَذَرٌ نجَّاكَ ممَّا أصابَك الحَذَرُ

يَرحَمُـــك اللهُ مـــن أخـــي ثِقـــةٍ لم يـــكُ في صـــفوِ ودِّه كَـــدَرُ

فهكـــذا يَفسُـــدُ الزَّمـــانُ ويَفْـــنى العلـــمُ منـــه ويَـــدرُسُ الأثـــرُ

وقال قتادة: لو كان أحدٌ مُكتفيًا من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام؛ إذ قال للعبد الصالح: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا.

أبو العبَّاس التميمي قال، قال طاوس: الكلمة الصالحة صدقة.

وعن عبد الله بن ثُمامة بن أنس، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل لسانك تعبِّر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة.»

وقال الخليل: تكثَّرْ من العلم لتَعرِف، وتقلَّلْ منه لتحفظ. وقال الفُضيل: نِعمَت الهدية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يُلقيَها إلى أخيه. وكان يُقال: اجعل ما في الكُتب بيت مال، وما في قلبك للنفقة. وكان يُقال: يكتب الرجل أحسن ما سمع، ويحفظ أحسن ما كتب.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما قُرِن شيء بشيءٍ أفضل من علم إلى حِلم، ومن عفو إلى قدرة. وكان ميمون بن سِياه إذا جلس إلى قوم قال: إنا قومٌ منقطَع بنا، فحدِّثونا أحاديث نتجمَّل بها. وفخَر سليم مولى زياد بزياد عند معاوية، فقال معاوية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبك شيئًا بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني. وضرب الحجَّاج أعناق أسرى، فلما قدَّموا إليه رجلًا لتُضرَب عنقه قال: والله لئن كنَّا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيها أحدٌ يُحسِن مِثل هذا؟ وأمسك عن القتل.

وقال بَشير الرَّحَّال: إني لأجدُ في قلبي حَرًّا لا يُذهِبه إلا بردُ العدل أو حر السِّنان. وقدَّموا رجلًا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتُضرَب عنقه، ودخل على عبد الملك ابنٌ صغير له قد ضربه المعلِّم وهو يبكي، فهمَّ عبد الملك بالمُعلم، فقال: دعه يبكي؛ فإنه أفتَحُ لجِرمه، وأصحُّ لبصره، وأذهب لصوته. فقال له عبد الملك: أمَا يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء. فأمر بتخلية سبيله. وقال إبراهيم بن أدهم: أعربنا في كلامنا فما نلحن حرفًا، ولحنَّا في أعمالنا فما نُعرِب حرفًا. وأنشد:

نُرقِّعُ دُنيانا بتمزيقِ دِينِنا ... فلا دِينُنا يَبْقى ولا ما نُرقِّعُ

وقال زياد على المِنبر: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يُقطَع بها ذنَبُ عنزٍ مَصُور، لو بلغت إمامه سفك بها دمه. وعزل عمر زيادًا عن كتابة أبي موسى في بعض قدماته، فقال له زياد: أعن عجز أم عن خيانة؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكن أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك. وبلَغ الحجَّاجَ موتُ أسماء بن خارجة، فقال: هل سمعتم بالذي عاش ما شاء ومات حين شاء؟

وكان يُقال: كدرُ الجماعة خيرٌ من صفو الفُرقة. قال أبو الحسن: مرَّ عمر بن ذر، بعبد الله بن عيَّاش المنتوف، وقد كان سَفِه عليه ثم أعرض عنه، فتعلَّق بثوبه فقال: يا هناه، إنا لم نجد لك إذا عصيت الله فينا خيرًا من أن نُطيع الله فيك.

وهذا كلام أخذه عمر بن ذر عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى

عنه، حين قال عمر: إني والله لا أدَع حقًّا لله لشكايةٍ تظهر، ولا لغضبٍ يُحتمل، ولا لمُحاباة بشر، وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمِثل أن تُطيع الله فيه. وكتب عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إلى سعد بن أبي وقَّاص: يا سعدَ سعدَ بني وُهيب، إن الله إذا أحب عبدًا حبَّبه إلى خلقه، فاعتبِرْ منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مِثل الذي لله عندك.

ومات لعمر بن ذر ابنٌ فقال: أي بُنيَّ، شغَلني الحزن لك عن الحزن عليك. وقال رجل من مُجاشع: كان الحسن يخطب في دمٍ فينا، فأجابه رجل فقال: وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم. فقال الحسن: لا تقُل هكذا، بل قل: لله ثم لوجوهكم، وآجَرك الله.

ومر رجل بأبي بكر، رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا، عافاك الله. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله.

وسأل عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، رجلًا عن شيء فقال: الله أعلم. فقال عمر: لقد شقينا إن كنَّا لا نعلم أن الله أعلم. إذا سُئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليَقل: لا عِلم لي. وكان أبو الدرداء يقول: أبغض الناس إليَّ أن أظلمه من لا يستعين عليَّ بأحد إلا بالله.

وذكر ابن ذر الدنيا فقال: كأنكم إنما زادكم في حرصكم عليها ذمُّ الله عز وجل لها. ونظر أعرابي إلى مال له كثير من الماشية وغيرها، فقال: ينعة، ولكل ينعةٍ استحشاف. فباع ما هناك من ماله، ثم لزم ثغرًا من ثغور

المسلمين حتى مات فيه. وتمنَّى قوم عند يزيد الرقاشي، فقال: أتمنَّى كما تمنَّيتم؟ قالوا: تمنَّه. قال: ليتنا لم نُخلَق، وليتنا إذ خُلِقنا لم نَعصِ، وليتنا إذ عصينا لم نمُت، وليتنا إذ مُتنا لم نُبعَث، وليتنا إذ بُعِثنا لم نُحاسَب، وليتنا إذ حُوسِبنا لم نُعذَّب، وليتنا إذ عُذِّبنا لم نُخلَّد.

وقال الحجَّاج: ليت الله إذ خلَقَنا للآخرة كفانا أمر الدنيا؛ فرفع عنا الهمَّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليته إذ وقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة؛ فرفع عنا الاهتمام بما يُنجي من عذابه. فبلغ كلامهما عبد الله بن حسن بن حسن، أو علي بن الحسين، فقال: ما عَلِما شيئًا في التمنِّي، ما اختار الله فهو خير. قال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. قال شريح: الحدة كناية عن الجهل. وقال أبو عُبيدة: العارضة كناية عن البذاء.

وإذا قالوا: فلان مُقتصد، فتلك كناية عن البخل. وإذا قالوا للعامل: مُستقصٍ، فهو كناية عن الجور. وقال حبيب بن أوس الشاعر أبو تمَّام الطائي:

كذبتُمُ ليس يُزهى من له حَسَبٌ ... ومن له نَسَبٌ عمَّن له أدَبُ

إنِّي لَذُو عَجَبٍ منكم أردِّدُه ... فيكم وفي عَجَبي من زَهوِكم عَجَبُ

لَجاجةٌ بيَ فيكم ليس يُشبِهُها ... إلَّا لَجاجتُكم في أنَّكم عَرَبُ

وقيل لأعرابيةٍ مات ابنها: ما أحسنُ عزائك عن ابنك؟ قالت: إن مصيبته آمَنتني من المصائب بعده. وقال سعيد بن عثمان بن عفان لطُويس المغنِّي: أيُّنا أسَنُّ؛ أنا أو أنت يا طويس؟ فقال: بأبي أنت وأمي، لقد

شهدت زفاف أمك المُبارَكة إلى أبيك الطيِّب، فانظر إلى حِذقه وإلى معرفته بمخارِج الكلام، كيف لم يقُل: زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك؟ وهكذا كان وجه الكلام، فقلب المعنى.

وقال رجل من أهل الشام: كنت في حلقة أبي مُسهِر في مسجد دمشق، فذكرنا الكلام وبراعته، والصمت ونبالته، فقال: كلَّا، إن النجم ليس كالقمر، إنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت. وقال الهيثم بن صالح لابنه وكان خطيبًا: يا بُنيَّ، إذا أقللتَ من الكلام أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب. قال: يا أبَه، فإن أنا أكثرت وأكثرت؟ يعني كلامًا وصوابًا. قال: يا بُنيَّ، ما رأيت موعوظًا أحقَّ بأن يكون واعظًا منك.

وقال ابن عبَّاس: لولا الوسواس، ما بالَيت ألا أكلِّم الناس.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما تستبقوا من الدنيا تجدوه في الآخرة. وقال رجل للحسن: إني أكره الموت. قال: ذلك أنك أخَّرت مالك، ولو قدَّمته لسرَّك أن تلحق به. وقال عامر بن الظَّرِب العَدْواني: الرأي نائم، والهوى يقظان؛ فمن هنا يغلب الهوى الرأي. وقال: مكتوب في الحكمة: اشكر لمن أنعمَ عليك، وأنعِمْ على من شكر لك. وقال أبو الدرداء: أيها الناس، لا يمنعكم سوءُ ما تعلمون منا أن تَقبَلوا أحسن ما تسمعون منا.

وقال عبد الملك على المنبر: ألا تُنصِفوننا يا معشر الرعية؟ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر

وعمر؟ نسأل الله أن يُعِين كلًّا على كلٍّ. وقال رجل من العرب: أربع لا يَشبَعن من أربع؛ أنثى من ذكر، وعين من نظر، وأرض من مطر، وأُذن من خبر.

وقال موسى عليه السلام لأهله: امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ. فقال بعض المُعترضين: فقد قال: أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ. قال أبو عَقيل: لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل، ومن الجائع المقرور.

وقال لبيد بن ربيعة:

ومَقــــامٍ ضـــيِّقٍ فرَّجتُــــه ... ببيــــانٍ ولســــانٍ وجَـــدَلْ

لـــو يقـــومُ الفيـــلُ أو فيَّالُـــه ... زلَّ عـــن مِثـــلِ مَقـــامي وزَحَـــلْ

ولـــدى النُّعمـــانِ مـــنِّي مَـــوطِنٌ ... بـــينَ فـــاثورِ أُفـــاقٍ فالـــدَّحَلْ

إذ دعَتْـــــني عـــــامرٌ أنصُـــــرُها ... فـــالْتَقى الألسُـــنُ كالنَّبـــلِ الـــدُّوَلْ

فرمَيــــتُ القـــومَ رَشْـــقًا صـــائبًا ... لـــيس بالعُصْـــلِ ولا بالمُقتعِـــلْ

وانتضَـــلْنا وابـــنُ سَـــلْمى قاعـــدٌ ... كعَتيـــقِ الطَّـــيرِ يُغْضـــي ويُجَـــلْ

وقبيـــلٌ مـــن لُكَيـــزٍ شـــاهدٌ رهْـــطَ ... مرجـــومٍ ورهْـــطَ ابـــنِ المُعَـــلْ

وقال لبيد:

لـــو كـــان حـــيٌّ في الحيـــاةِ مُخلَّـــدًا ... في الـــدهرِ أدركَـــه أبـــو يَكسُـــومِ

بكتائـــبٍ خُـــرْسٍ تَعـــوَّدَ كَبْشَـــها ... نَطْـــحَ الكِبـــاشِ شـــبيهةٍ بنُجـــومِ

ولقــد بلَوتُــك وابتلَيــتُ خليقــتي   ولقــد كفَــاك مُعلِّمــي تَعليمــي

وقد قال أيضًا لبيد:

ذهــبَ الــذين يُعــاشُ في أكنــافِهم   وبقيــتُ في خَلْــفٍ كجِلــدِ الأجــربِ

يَتــأكَّلونَ مَغالــةً وخيانــةً ويُعــابُ   قــــائلُهم وإنْ لم يَشــــغَبِ

وقال زيد بن جُندب في ذِكر الشغب:

مــا كــان أغْــنى رجــالًا ضــلَّ ســعيُهمُ   عــن الجِــدالِ وأغْنــاهم عــن الشَّــغَبِ

وقال آخر في الشغب:

إنّي إذا عاقبــــتُ ذو عِقــــابِ   وإنْ تُشــــاغِبْني فــــذُو شِــــغابِ

وقال آخر:

لــو كنــتُ ذا عِلــمٍ عَلِمــتُ وكيــف   لي بالعِلــمِ بعــدَ تَــدبُّرِ الأمــرِ

وقال المُعترِض على أصحاب الخطابة والبلاغة:

قال لقمان لابنه: يا بُنيَّ، إني قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت.

وقال الشاعر:

مــا إنْ نَــدِمتُ علــى سُــكوتي مَــرَّةً   ولقــد نَــدِمتُ علــى الكِــلامِ مِــرارا

وقال آخر:

خــــلِّ جَنْبَيــــكَ لِــــرامِ   وامْــــضِ عنــــه بسَــــلامِ

مُـــــتْ بِـــــداءِ الصَّـــــمتِ   خـــيرٌ لـــكَ مـــن داءِ الكَـــلامِ

إنَّمـــــا المُســـــلِمُ مـــــن   ألْـــــجَمَ فـــــاهُ بلِجـــــامِ

وقال آخر في التحذير والاحتراس:

اخفِـــضِ الصَّـــوتَ إن نطَقْـــتَ   بلَيـلٍ والتَفِـتْ بالنَّهـارِ قبـلَ الكَـلامِ

وقال في مثل ذلك:

لا أسـألُ النـاسَ عمَّـا في ضـمائرِهم   مـا في ضـميري لهـم مـنِّي سـيَكْفِيني

وقال حَمزة بن بيض:

لم يَكُـــنْ عـــن جِنايـــةٍ لَحِقَتْـــني   لا يَســـاري ولا يَميـــني جَنَتْـــني

بـــل جَناهـــا أخٌ علـــيَّ كـــريمٌ   وعلـــى أهلِهـــا بَـــراقِشُ تَجْـــني

لأن هذه الكلبة – وهي براقش – إذا نبحت غزيًّا وقد مرُّوا من ورائهم، وقد رجعوا خائبين مُخفِقين، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوهم، ولو سكتت كانوا قد سلموا؛ فضرب ابن بيض به المَثل.

وقال الأخطل:

تَنِـــقُّ بـــلا شـــيءٍ شـــيوخُ مُحـــارِبٍ   ومـا خِلتُهـا كانـت تَـرِيشُ ولا تَـبْري

ضـــفادعُ في ظَلْمـــاءِ لَيـــلٍ تَجاوَبَـــتْ   فـــدلَّ عليهـــا صـــوتُها حيَّـــةَ النَّهـــرِ

النقيق: صياح الضفادع.

وقالوا: الصمت حُكْم وقليلٌ فاعله. وقالوا: استكثِرَ من الهيبة صامت. وقيل لرجل من كلبٍ طويل الصمت: بحقٍّ ما سمَّتكم العلماء خُرْس العرب. فقال: أسكت فأسلم، وأسمع فأعلم. وكانوا يقولون: لا تَعدِلوا بالسلامة شيئًا. ولا تسمع الناس يقولون: جُلِد فلان حين صمت، ولا قُتِل حين سكت؛ وتسمعهم يقولون: جُلِد فلان حين قال كذا وكذا، وقُتِل حين قال كذا وكذا. وفي الحديث المأثور: رحم الله من سكت فسَلِم، أو قال خيرًا فغَنِم. والسلامة فوق الغنيمة؛ لأن السلامة أصل، والغنيمة فرع.

وقال النبي ﷺ: «إن الله يُبغض البليغ الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها.»

وقيل: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين: إنما عاب النبي ﷺ المُتشادِقين والثَّرثارين، والذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المُتشادق، وهو الذي يصنع بفكَّيه وشِدقَيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر؛ فمن تكلَّف ذلك منهم فهو أعيَب، والذم له ألزم. وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيُرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعًا يتمثَّلون بها إلا لِما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمَثل.

وإنما حثُّوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرَعُ منهم إلى معرفة خطأ الصمت، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فالسكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل.

ولعَمْري إن الناس إلى الكلام لأسرع؛ لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد عَلِمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت، وقد قال الله عز وجل: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ. فجعل سمعه وكذبه سواءً.

وقال الآخر:

فــإنْ أنا لم آمُــرْ ولم أنْــهَ عنكمــا ضَـحِكتُ لـه حـتى يَلِـجَّ ويَسْتشـري

وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يُجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمُّ ويخص؟ والرُّواة لم يروُوا سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين. وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت. ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة. وطول الصمت يُفسِد اللسان.

وقال بكر بن عبد الله المُزني: طول الصمت حُبْسة. كما قال عمر: ترك الحركة عُقْلة. وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلَّدت نفسه، وفسد حِسُّه. وكانوا يُرَوُّون صِبيانهم الأرجاز، ويعلِّمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللَّهاة، ويفتح الجِرم.

واللسان إذا أكثرت تحريكه رقَّ ولان، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ. وقال عُباية الجُعفي: لولا الدُّربة وسوء العادة لأمرت فِتياننا أن يُماريَ بعضهم بعضًا. وأية جارحة منعتها الحركة، ولم تمرِّنها على الأعمال، أصابها من التعقُّد على حسب ذلك المنع.

فلِمَ قال رسول الله ﷺ للنابغة الجعدي «لا يَفضُض اللهُ فاك»؟ ولِمَ قال لكعب بن مالك «ما نسي اللهُ لك مقالك ذلك»؟ ولِمَ قال لهيذان بن شيخ «رُبَّ خطيب من عبس»؟ ولِمَ قال لحسَّان لما هيَّج الغطاريف على بني عبد مناف «والله لشِعرُك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام»؟

وما نشك أنه، عليه وعلى آله السلام، قد نهى عن المِراء، وعن التزيُّد والتكلُّف، وعن كل ما ضارَع الرياء أو السُّمعة، والنفج والبذخ، وعن التهاتر والتشاغب، وعن المغالبة والمماتنة؛ فأما نفس البيان، فكيف ينهى عنه وأبيَنُ الكلام كلام الله، وهو الذي مدح التبيين وأهل التفصيل؟ وفي هذا كفاية إن شاء الله.

قال دغفل بن حنظلة: إن للعلم أربعًا؛ آفة، ونكدًا، وإضاعة، واستجاعة؛ فآفته النِّسيان، ونكده الكذب، وإضاعته وضعه في غير موضعه، واستجاعته أنك لا تشبع منه. وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء، ولخرق سياسة أكثر الرُّواة؛ لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع، عن تحفُّظ ما قد حصَّلوه، وتدبُّر ما قد دوَّنوه، كان ذلك الازدياد داعيًا إلى النقصان، وذلك الربح سببًا للخسران.

وقد جاء في الحديث: «منهومان لا يشبعان؛ منهوم في العلم، ومنهوم في المال.»

وقالوا: علِّمْ عِلمك، وتعلَّمْ عِلم غيرك؛ فإذا أنت قد عَلِمت ما جَهِلت، وحَفِظت ما عَلِمت. وقال الخليل بن أحمد: اجعل تعليمك دراسة لعِلمك، واجعل مناظرة المُتعلم تنبيهًا لك على ما ليس عندك. وقال بعضهم، وأظنُّه بكر بن عبد الله المُزني: لا تكدُّوا هذه القلوب ولا تُهمِلوها؛

فخير الفكر ما كان عَقِب الجَمام، ومن أكره بصره عَشِي، وعاوِدُوا الفكرة عند نبوات القلوب، واشحذوها بالمذاكرة، ولا تيئَسوا من إصابة الحكمة إذا امتُحنتم ببعض الاستغلاق؛ فإن من أدام قرع الباب ولج.

وقال الشاعر:

إذا المـــرءُ أعيَتْـــه المُـــروءةُ ناشـــئًا ... فمَطلَبُهـــا كَهْـــلًا عليـــه شَـــديدُ

وقال الأحنف: السؤدد مع السواد. وتقول الحكماء: من لم ينطق بالحكمة قبل الأربعين لم يبلغ فيها.

وأنشد:

ودُونَ النَّـــدى في كـــلِّ قلـــبٍ ثَنِيَّـــةٌ ... لهـــا مَصـــعَدٌ حَـــزْنٌ ومُنحـــدَرٌ سَـــهْلُ

وودَّ الفـــتى في كـــلِّ نَيـــلٍ يُنِيلُـــه ... إذا مـــا انقضـــى لـــو أنَّ نائلَـــه جَـــزْلُ

وقال الهُذلي:

وإنَّ ســـــيادةَ الأقـــــوامِ فـــــاعلَمْ ... لهـــــا صُـــــعَداءُ مَطلَبُهـــــا طويـــــلُ

أتَرْجُـــو أنْ تَسُـــودَ ولـــنْ تُعـــنَّى ... وكيـــف يَسُـــودُ ذو الدَّعـــةِ البَخيـــلُ؟

روى صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجَّاج وإياس بن معاوية؛ فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. أبو الحسن قال: سمعت أبا الضُّعري الحارثي يقول: كان الحجَّاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النبط ثم قال لهم: لا تدخلوها. فلما مات دلفوا إليها من قريب.

سمعت قَحطبة الجُشمي يقول: كان أهل البصرة لا يشكُّون أنه لم يكن بالبصرة رجلٌ أعقل من عُبيد الله بن الحسن وعُبيد الله بن سالم. وقال معاوية لعمرو بن العاص: إن أهل العراق قد قرنوا بك رجلًا طويل اللسان قصير الرأي، فأجِدِ الحز وطبِّق المَفصل، وإيَّاك أن تلقاه برأيك كله.

باب اللحن

قال أبو عثمان عمرو بن بحر: حدَّثنا عثَّام أبو يحيى، عن الأعمش، عن عِمارة بن عُمير، قال: كان أبو مَعمر يحدِّثنا فيلحن، يَتْبع ما سَمِع.

أبو الحسن قال: أوفد زيادٌ عُبيدَ الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت، ولكن قوِّم من لسانه. وكانت في عُبيد الله لُكنة؛ لأنه كان نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة، وكان زياد تزوَّجها من شِيرويه الأسواري. وكان قال مرةً: افتحوا سيوفكم. يريد: سُلُّوا سيوفكم. فقال يزيد بن مُفرغ:

ويومَ فتَحتَ سَيفَكَ من بَعيدٍ أضَعتَ وكلُّ أمرِك للضَّياعِ

ولما كلَّمه سُويد بن منجوف في الهَثهات بن ثور، قال له: يا ابن البَظراء. فقال له سُويد: كذبتَ على نساء بني سَدوس. قال: اجلس على است الأرض. قال سُويد: ما كنت أحسب أن للأرض استًا.

قالوا: قال بِشر بن مروان – وعنده عمر بن عبد العزيز – لغلام له: ادْعُ لي صالحًا. فقال الغلام: يا صالحًا. فقال له بشر: ألقِ منها ألِف. فقال له عمر: وأنت فزِدْ في ألِفك ألِفًا.

وزعم يزيد مولى عَون قال: كان رجل بالبصرة له جارية تُسمَّى ظَمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء. بالضاد. فقال له ابن المقفع: قل يا

ظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثًا قال: هي جاريتي أو جاريتك؟

قال نصر بن سيَّار: لا تُسمِّ غلامك إلا باسمٍ يخفُّ على لسانك.

وكان مُحَمَّد بن الجهم ولَّى المكِّيَّ صاحب النظَّام موضعًا من مواضع كسكر، وكان المكي لا يُحسن أن يسمِّيَ ذلك المكان ولا يتهجَّاه ولا يكتبه، وكان اسم ذلك المكان «شانَمَثنا».

وقيل لأبي حنيفة: ما تقول في رجلٍ أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله، أتُقيده به؟ قال: لا، ولو ضرب رأسه بأبا قُبيس.

وقال يوسف بن خالد التيمي لعمرو بن عُبيد: ما تقول في دجاجة ذُبحت من قفائها؟ قال له عمرو: أحسِنْ. قال: من قفاؤها. قال: أحسِنْ. قال: من قفاءها. قال له: من عنَّاك هذا؟ قل من قفاها واسترِح. قال: وسمعت من يوسف بن خالد يقول: لا، حتى يشِجَّه. بكسر الشين. يريد: حتى يشُجَّه. بضم الشين. وكان يوسف يقول: هذا أحمر من هذا. يريد: هذا أشد حُمرةً من هذا.

وقال بِشر المريسي: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها. فقال قاسم التمَّار: هذا على قوله:

إنَّ سُلَيمى واللهُ يَكْلؤُها ... ضَنَّت بشَيءٍ ما كانَ يَرزَؤُها

فصار احتجاج قاسم أطيبَ من لحن بِشر.

وقال مسلم بن سلَّام، حدَّثني أبان بن عثمان قال: كان زياد النَّبَطي

شديد اللُّكنة، وكان نحويًّا. قال: وكان بخيلًا. دعا غلامه ثلاثًا، فلما أجابه قال: فمن لَدُن دَأَوتُك فقلت لَبَّي إلى أن أجبتني ما كنت تَصنَأ؟ يريد: من لَدُن دعوتُك إلى أن أجبتني ما كنت تصنع؟ قال: وكانت أم نُوح وبلال ابنَي جرير أعجمية. فقال لها: لا تتكلمي إذا كان عندنا رجال. فقالت يومًا: يا نوح، جُرْذَان دخل في عِجان أمك. وكان الجُرذ أكل من عجينها.

قال أبو الحسن: أُهدي إلى فيلٍ مولى زياد حِمارُ وحش، فقال لزياد: أهدَوا لنا هِمارَ وَهْش. قال: أيَّ شيء تقول وَيلَك؟ قال: أهدَوا إلينا أيْرًا. يريد عَيرًا. قال زياد: الثاني شر من الأول.

قال يحيى بن نوفل:

وإنْ يَــكُ زَيــدٌ فصــيحَ اللِّســانِ ... خطيبًــا فــإنَّ اسْــتَه تَلحَــنُ

عليــكَ بِسُــكٍّ ورُمَّانــةٍ ... ومِلْــحٍ يُــدَقُّ ولا يُطحَــنُ

وحِلْتِيــتِ كَرْمَــانَ أو نانَخَــاهُ ... وشمــعٍ يُســخَّنُ في مُــدْهُنِ

وقال المَيْساني في هجائه أهل المدينة:

ولَحــنُكمُ بتَقصــيرٍ ومــدٍّ وألأمُ ... مــن يَــدِبُّ علــى العَفــارِ

علي بن معاذ قال: كتبت إلى فتًى كتابًا، فأجابني، فإذا عنوان الكتاب: إلى ذاك الذي كتب إليَّ. وقرأت على عنوان كتاب لأبي أميَّة الشَّمَّري: للموتِ أنا قبله. وكتب ابن المرادي إلى بعض ملوك بغداد: جُعلتُ فِداك برحمتِه.

وقال إبراهيم بن سيَّار: أنا لا أقول «متُّ قبلك»؛ لأني إذا قلت

«مت قبلك» مات هو بعدي، ولكن أقول: مت بدَلَك.

وكتب عِقال بن شبَّة بن عِقال إلى زُهير بن المُسيب:

للأمـــيرِ المســـيَّبِ بـــنِ زُهـــيرٍ — مـــن عِقـــالِ بـــنِ شـــبَّةَ بـــنِ عِقـــالِ

ولما كتب بَشير بن عُبيد الله على خاتَمه:

بشـــــير بـــــن عُبيـــــد الله — بالـــــــرحمنِ لا يُشـــــــرِكْ

قرأه أبوه على خاتمه، قال: هذا أقبَحُ من الشرك.

وقال عبد الملك بن مروان: اللَّحن هُجنة على الشريف، والعُجب آفة الرأي. وكان يُقال: اللحن في المنطق أقبح من آثار الجُدري في الوجه.

وقال يحيى بن نوفل في خالد بن عبد الله القسري:

وألحَـنُ النَّـاسِ كـلِّ النَّـاسِ قاطبـةً — وكـان يُولَـعُ بالتَّشـديقِ في الخُطَـبِ

وزعم المدائني أن خالد بن عبد الله – وكان يُولَع بالتشديق – قال: إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون.

ولولا أن تلك العجائب قد صُححت على الوليد ما جوَّزت هذا على خالد.

قال: وكتب الحُصين بن الحُر كتابًا إلى عمر فلحن في حرف منه، فكتب إليه عمر: أن قنّعْ كاتبَك سوطًا.

وبلَغني عن كُثيِّر بن أحمد بن زُهير بن سيَّار أنه كان يُنشد بيت أبي دُلَف:

ألبِســــيني الــــدِّرعَ قــــد طــــا　　لَ عــــن الحَــــربِ جَمــــاحي

فسألته عن ذلك فحلف أنه إنما قال:

ألبِســــيني الــــدِّرعَ قــــد طــــا　　لَ عــــن الحــــربِ جِماصــــي

قال الله تبارك وتعالى: وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ. فاللحن في ذلك الموضع غير اللحن في ذلك الموضع.

وكان سليمان بن عبد الملك يقول: المُغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يُفخم اللحن كما يُفخم نافع بن جُبير الإعراب.

وقال الشاعر في نحو ذلك:

لعَمْــري لقــد قعَّبــتَ حــينَ لقِيتَنــا　　وأنــتَ بتقعيــبِ الكــلامِ جَــديرُ

وقال خلف الأحمر:

وفَــــرقَعَهنَّ بتَقعيبِــــه كفَرقعــــةِ　　الرَّعــــدِ بــــينَ السَّــــحابِ

وقال الأصمعي: خاصَم عيسى بن عمر النحوي الثقفي رجلًا إلى بلال بن أبي بُردة، فجعل عيسى يُشبع الإعراب، وجعل الرجل ينظر إليه، فقال له بلال: لأن يذهب بعض حق هذا أحَبُّ إليه من ترك الإعراب، فلا تتشاغلْ به واقصِد بحُجتك.

وقدَّم رجل من النحويين رجلًا إلى السلطان في دَين له عليه، فقال: أصلح الله الأمير، لي عليه درهمان. قال خصمه: لا والله أيها الأمير، إن هي إلا ثلاثة دراهم، لكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهمًا.

قال: خاصَم رجل إلى الشعبي أو إلى شُريح رجلًا فقال: إن هذا باعَني غلامًا فصيحًا صبيحًا. قال: هذا مُحَمَّد بن عمر بن عطارد بن حاجب بن زرارة.

قال: مرَّ ماسرجويه الطبيب بجدِّ معاذ بن سعيد بن حميد الحِميري، فقال: يا ماسرجويه، إني أجد في حلقي بَحَحًا. قال: إنه عملُ بُلغَم. فلما جاوزه قال: أنا أُحسن أن أقول بَلغَم، ولكنه كلَّمني بالعربية فكلَّمته بالعربية.

وروى أبو الحسن أن الحجَّاج كان يقرأ: إنا من المجرمون المنتقمون. وقد زعم رُؤبة بن العجَّاج وأبو عمرو بن العلاء أنهما لم يرَيا قرويَّين أفصح من الحسن والحجاج. وغلط الحسن في حرفَين من القرآن، مثل قوله: ص والقرآن. والحرف الآخر: وما تنزَّلت به الشياطون.

أبو الحسن قال: كان سابقٌ الأعمى يقول: الخالق البارئ المصوَّر. فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق، ما فعل الحرف الذي تُشرِك بالله فيه؟ قال: وقرأ: ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنون. وقال ابن جابان: وإن آمنوا أيضًا لم نَنكِحهم.

وقال مَسلمة بن عبد الملك: إني لأُحبُّ أن أسأل هذا الشيخ. يعني عمرو بن مسلم. فما يمنعني منه إلا لحنه.

قال: وكان أيوب السختياني يقول: تعلَّموا النحو؛ فإنه جمال للوضيع، وتركه هُجنة للشريف.

وقال عمر: تعلَّموا النحو كما تَعلَّمون السنن والفرائض.

قال رجل للحسن: يا أبي سعيد. فقال: كسب الدوانيق شغَلك عن أن تقول يا أبا سعيد؟

قالوا: وأول لحن سُمِع بالبادية: هذه عصاتي. وأول لحن سُمِع بالعراق: حيِّ على الفلاح.

باب من لَحْن البلُغاء

ومن اللحَّانين البُلغاء خالد بن عبد الله القَسْري، وخالد بن صَفوان الأهتمي، وعيسى بن المدوَّر.

وقال بعض النُّسَّاك: أعرَبْنا في كلامنا فما نَلحَن حرفًا، ولحَنَّا في أعمالنا فما نُعرِب حرفًا.

أخبرَنا الربيع بن عبد الرحمن السُّلَمي، قال: قلت لأعرابي: أتَهمِز إسرائيل؟ قال: إني إذًا لَرَجلُ سوء. قلت: فتجرُّ فلسطين؟ قال: إني إذًا لقَوي.

وكان هُشيم يقول: حدَّثنا يَوْنِسْ عن الحسن. يقولها بفتح الياء وكسر النون.

وكان عبد الأعلى بن الله السُّلمي يقول: فأخذِه فصرعِه فذبحِه فأكلِه، بكسر هذا أجمع.

وكان مهدي بن مُهلهل يقول: حدَّثنا هشامْ، مجزومةً؛ ثم يقول: ابنْ، ويجزمه؛ ثم يقول حسانْ، ويجزمه؛ لأنه حين لم يكن نحويًّا رأى أن السلامة في الوقف.

وأما «خالد بن الحارث» و«بِشر بن المفضَّل» الفقيهان، فإنهما كانا لا يلحنان.

ومِن كان لا يلحن البتَّةَ حتى كأن لسانه لسان أعرابي فصيح: «أبوزيد» النحوي، و«أبو سعيد» المعلِّم.

وقال أبو الفضل العنبري لعلي بن بشير: إني التقطت كتابًا من الطريق فأُنبئت أن فيه شعرًا، أفتريده حتى آتيَك به؟ قال: نعم، إن كان مقيَّدًا. قال: والله ما أدري أمقيَّد هو أم مغلول.

الأصمعي قال: قيل لأعرابي: أتهمز الرمح؟ قال: نعم. قيل له: فقلها مهموزةً. فقالها مهموزة. قال: أتهمز التُّرس؟ قال: نعم. فلم يدع سيفًا ولا ترسًا إلا همزه، فقال له أخوه وهو يهزأ به: دعوا أخي؛ فإنه يهمز السلاح أجمع.

وقال بعضهم: ارتفع إلى زيادٍ رجل وأخوه في ميراث، فقال: إن أبونا مات، وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فقال زياد: الذي أضعتَ من لسانك أضَرُّ عليك مما أضعتَ من مالك. وأما القاضي فقال: فلا رحم الله أباك، ولا تنح عظم أخيك. قم في لعنة الله! وقال أبو شيبة قاضي واسط: أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم؟

قال أبو عُبيدة: أرسل ابنٌ لعِجل بن لُجيم فرسًا له في حلبة، فجاء سابقًا، فقال لأبيه: يا أبتِ، بأي شيء أسمِّيه؟ فقال: افقأ إحدى عينَيه وسمِّه الأعور.

وشعراء مُضَر يُحمِّقون رجال الأزد ويستخفُّون أحلامهم. قال عمر بن لجاء:

تَصـــطَكُّ ألْحِيهـــا علـــى دِلائِهـــا　　　تَلاطُـــــمَ الأزدِ علـــــى عَطائِهـــــا

وقال بشَّار:

وكـــأنَّ غَلْـــيَ دِنانِهِـــم في دُورِهـــم　　　لَغَـــطُ العَتِيـــكِ علـــى خِـــوانِ زِيادِ

وقال الراجز:

لَبَّيـــــكَ بي أرفُـــــلُ في بِجَـــــادي　　　حـــــازِمُ حَقـــوَيَّ وصَـــــدْري بادي

أُفـــرِّجُ الظَّلْمـــاءَ عـــن ســـوادي　　　أقْـــوى لِشَـــولٍ بكَّـــرَت صَـــوادِ

كأنَّمـــــا أصـــــواتُها بالــــــوادي　　　أصـــواتُ حـــجٍّ عـــن عُمـــانَ غـــادِ

وقال الآخر:

وإذا سَمِعـــــتَ هَـــــديلَهنَّ حَسِـــــبتَه　　　لَغَـــطَ المَعـــاوِلِ في بُيـــوتِ هَـــدادِ

وبسبب هذا يُدخلون في هذا المعنى قبائل اليمانية. وقال ابن أحمر:

إخالُهـــا سَمِعَـــت عَزفًـــا فتَحسَـــبُه　　　إهابـــةَ القَسْـــرِ لـــيلًا حـــينَ تَنتشِـــرُ

باب النَّوكى والمجانين

قالوا: ومن النوكى «مالك بن زيد مناة» بن تميم، الذي لما دخل على امرأته فرأت ما رأت به من الجفاء والجهل، وجلس في ناحية مُنقبضًا مُشتملًا، قالت: ضع عُلبتك. قال: يدي أحفظ لها. قالت: فاخلع نعلَيك. قال: رِجلاي أحفظ لهما. قالت: فضع شَمْلتك. قال: ظهري أولى بها. فلما رأت ذلك قامت فجلست إلى جانبه، فلما شم ريح الطِّيب وثب عليها.

ومن المجانين والمُوسوسين والنوكى «ابن فِنان»، و«صبَّاح المُوسوِس»، و«ريسموس اليوناني»، و«أبو حيَّة النُّميري»، و«أبو يَس الحاسب»، و«جُعيفران الشاعر»، و«جَرَنفَش»، ومنهم «سارية الليل»، ومنهم «رَيطة بنت كعب» بن سعد بن تيم بن مُرة، وهي التي نقضت غزلها أنكاثًا، فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل، وهي التي قيل لها: خَرقاء وجدت صوفًا. ومنهم «دُغة»، و«جَهيزة»، و«شَولة»، و«ذراعة المعدِّيَّة»، ولكل واحد من هؤلاء قصةٌ سنذكُرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

فأما «ريسموس» فكان من مُوسوِسي اليونانيين. قال له قائل: ما بال ريسموس يعلِّم الناس الشعر ولا يستطيع قوله؟ قال: مثله مثل المِسَن الذي يشحذ ولا يقطع. ورآه رجلٌ يأكل في السوق فقال: ما بال ريسموس يأكل في السوق؟ قال: إذا جاع في السوق أكل في السوق. وألحَّ عليه بالشتيمة رجل وهو ساكت، فقيل له: يشتمك مِثلُ هذا وأنت

ساكت؟ قال: أرأيت إن نبحك كلبٌ أتنبحه، أو رمحك حمارٌ أترمحه؟ وكان إذا خرج في الفجر يريد الفُرات ألقى في دوَّارة بابه حجرًا حتى لا يُعاينَ دفع بابه إذا رجع. وكان كلما رجع إلى بابه وجد الحجر مرفوعًا والباب مُنصفقًا، فعَلِم أن أحدًا يأخذ الحجر من مكانه، فكمَن لصاحبه يومًا، فلما رآه قد أخذ الحجر قال: ما لك تأخذ ما ليس لك؟ قال: لم أعلم أنه لك. قال: فقد عَلِمت أنه ليس لك!

أما «جُعيفران» المُوسوِس الشاعر، فشَهِدت رجلًا أعطاه درهمًا وقال: قل شعرًا على الجيم، فأنشأ يقول:

عـــــادَني الهـــــمُّ فـــــاعتلَجْ	كـــــلُّ هـــــمٍّ إلى فَـــــرَجْ
ســـــلِّ عنـــــك الهُمـــــومَ بالـــــ	ـــــكأسِ وبالـــــرَّاحِ تَنفـــــرِجْ

وهي أبيات. وكان يتشيَّع، قال له قائل: أتشتم فاطمة وتأخذ درهمًا؟ قال: لا، بل أشتم عائشة وآخذ نصف درهم. وهو الذي يقول:

مـــــا جَعفـــــرٌ لأبيـــــهِ	ولا لـــــه بشَـــــبيهِ
أضـــــحى لقـــــومٍ كثـــــيرٍ	فكلُّهـــــم يدَّعيـــــهِ
هـــــذا يقـــــولُ بُـــــنيّ	وذا يُخاصِـــــمُ فيـــــهِ
والأمُّ تَضـــــحَكُ مـــــنهم	لعِلمِهـــــا بأبيـــــهِ

وأما «أبو يس» الحاسب فإن عقله ذهب بسبب تفكُّره في مسألة، فلما جُن كان يهذي بأنه سيصير ملكًا، وقد أُلهِم ما يحدُث في الدنيا من الملاحم. وكان أبو نواس والرَّقاشي يقولان على لسانه أشعارًا، على

مذاهب أشعار ابن عقب الليثي، ويُروِّيانها أبا يس، إذا حفظها لم يشكَّ أنه هو الذي قالها، فمن تلك الأشعار قول أبي نواس:

منَـــــعَ النَّـــــومَ ادِّكـــــاري زمنًـــــا ... ذا تهاويـــــــلَ وأشـــــــياءَ نُكُـــــــرْ

واعـــــتراكُ الـــــرُّومِ في مَعمَعـــــةٍ ... لـــيس فيهـــا لجبـــانٍ مـــن مَقَـــرْ

كائنـــاتٌ لـــيس عنهـــا مَـــذهبٌ ... خطُّهـــا يُوشَـــعُ في كُتْـــبِ الزُّبُـــرْ

وعلامـــــاتٌ ســـــتأتي قَبْلَـــــه ... جمَّـــةٌ أوَّلُهـــا سَـــكْرُ النَّهَـــرْ

ويلـــيهم رَجـــلٌ مـــن هاشـــمٍ ... أقـــنَصُ النـــاسِ جميعًـــا للحُمُـــرْ

يَبْتـــني في الصَّـــحنِ مـــن مَســـجِدِهم ... للمُصـــلِّينَ مـــن الشَّـــمسِ سُـــتُرْ

ورجـــاءٌ يَبْتـــني مَطهَـــرةً ضَـــخمةً ... في وَسْـــطِها طَشْـــتٌ صُـــفُرْ

فهُنـــاكم حـــينَ يفشـــو أمـــرُكم ... وهُنـــاكم يَنـــزلُ الأمـــرُ النُّكُـــرْ

فـــاتْبَعوه حيـــثُ مـــا ســـارَ بكـــم ... أيهـــا النَّـــاسُ وإنْ طـــالَ السَّـــفَرْ

ودَعُـــوا باللهِ أنْ تَهْـــزُوا بـــه ... لعـــنَ الـــرحمنُ مـــن مِنـــه سَـــخِرْ

والبصريُّون يزعمون أن أبا يس كان أحسب الناس.

أما «أبو حيَّة النُّميري» فإنه أجَنُّ من جُعيفران، وكان أشعر الناس، وهو الذي يقول:

ألَا حـــيِّ أطـــلالَ الرُّســـومِ البواليـــا ... لَبِســـنَ البِلـــى ممَّـــا لَبِســـنَ اللياليـــا

وهو الذي يقول:

فألقتْ قِناعًا دُونَه الشمسُ واتَّقَت بأحسنِ مَوصولَينِ كفٍّ ومِعصَمِ

وحدَّثني أبو المنجوف قال: قال أبو حية: عنَّ لي ظبيٌ فرمَيته، فراغَ عن سهمي، فعارَضه والله السهم، ثم راغ فراوَغه حتى صرعه ببعض الجِنارات. وقال: والله رميت ظَبْية، فلما نفذ السهم ذكرت بالظبية حبيبةً لي، فشددت وراء السهم حتى قبضت على قُذَذه، وكان يكلِّم العُمَّار، ويُخبر عن معاوضته للجن.

وأما «جرنفش» فإنه لما خلع الفرزدق لجام بَغلته، وأدنى رأسها من الماء، قال له جرنفش: نحِّ بغلتك، حلق الله ساقيك. قال: ولِمَ عافاك الله؟ قال: لأنك كذوب المَخبرة، زاني الكمرة. قال أبو الحسن: وبلَغني أن الفرزدق لما أن قال له الجرنفش ما قال، نادى: يا بني سدوس. فلما اجتمعوا إليه قال: سوِّدوا الجرنفش عليكم؛ فإني لم أرَ فيكم أعقل منه.

ومن مجانين الكوفة «عينادة»، و«طاق البصل». حدَّثني صديق لي قال: قلت لعينادة: أيما أجن؛ أنت أو طاق البصل؟ قال: أنا شيء وطاق البصل شيء.

ومن مجانين الكوفة «بُهلول»، وكان يتشيع. قال له إسحاق بن الصبَّاح: أكثر الله في الشيعة مِثلك. قال: بل أكثر الله في المرجئة مِثلي، وأكثر في الشيعة مِثلك. وكان جيِّد القفاء، فربما مرَّ به من يحب العبث فيقفذه، فحشا قفاه خرءًا، وجلس على قارعة الطريق، فكلما قفذه إنسانٌ تركه حتى يجوز، ثم يصيح به: يا فتى، شُم يدك. فلم يعُد بعدها أحدٌ يقفذه.

وكان يغنّي بقيراط ويسكت بدانق.

وكانت بالكوفة امرأةٌ رَعناء يُقال لها «مُجيبة»، فقفذ بُهلولًا فتىً كانت مُجيبة أرضعته، فقال له بُهلول: كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتَك مُجيبة؟ فوالله لقد كانت تزقُّ لي الفرخ فأرى الرُّعونة في طيرانه.

حدَّثني حُجر بن عبد الجبَّار، قال: مر «موسى بن أبي ردقاء» فناداه «صبَّاح» الموسوس: يا ابن أبي الردقاء، أسْمنتَ بِرْذَونك، وأهزلت دينك. أما والله إن أمامك لعقبة لا يجوزها إلا المُخِف. فحبس موسى بِرْذَونه وقال: من هذا؟ فقيل له: هذا صبَّاح الموسوس. فقال: ما هو بمُوسوس، هذا نذير.

قال أبو الحسن: دعا بعض السلاطين مجنونَين ليُحركهما فيضحك مما يجيء منهما، فلما أسمعاه وأسمعهما غَضِب ودعا بالسيف، فقال أحدهما لصاحبه: كنَّا مجنونين فصِرنا ثلاثة.

وتذاكروا اللُّثْغ، فقال قوم: أحسَنُ اللَّثغ ما كان على السين، وهو أن يصير ثاءً. وقال آخرون: على الراء، وهو أن يصير غينًا. فقال «مجنون البكرات»: أنا أيضًا ألثغ، إذا أردت أن أقول شرائط، قلت: رشيط.

وبعث عُبيد الله بن مروان عم الوليد إلى الوليد بقطيفةٍ حمراء، فكتب إليه الوليد: قد وصلت إليَّ القطيفة، وأنت يا عَمُّ أحمق أحمق.

وقال مُحَّد بن بلال لوكيله زيد: اشترِ لي طِيبًا سيرافيًّا. قال: تريده سِيرافي، أو سَيْرافي سِيَرافي؟

وقال مُحَمَّد بن الجهم للمكي: أراك مُستبصرًا في اعتقاد الجزء الذي لا يتجزأ، فينبغي أن يكون عندك حقًّا حقًّا. قال: أما أن يكون عندي حقًّا حقًّا فلا، ولكنه عندي حق.

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على «هاشمية» جارية حمدونة بنت الرشيد – على أن يشتريَ طعامًا من طعامها في بعض البيادر – فقال لها: إني قد رأيت متاعك. قالت هاشمية: قل طعامك. قال: وقد أدخلت يدي فيه، فإذا متاعك قد خمَّ وحميَ وصار مِثل الجيفة. قالت: يا أبا طالب، ألست قد قبلت الشعير؟ فأعطِنا ما شئت وإن وجدته فاسدًا. ودخل أبو طالب على المأمون فقال: كان أبوك يا أبا خيرًا لنا منك، وأنت يا أبا ليس تعدنا وليس تبعث إلينا، ونحن يا أبا تُجَّارك وجيرانك. والمأمون في كل ذلك يتبسم.

قيل للمُثنَّى بن يزيد بن عمر بن هُبيرة وهو على اليمامة: إن ها هنا مجنونًا له نوادر. فأتَوه به، فقال: ما هجاء النشَّاش؟ قال: الفلَج القادي. فغضب ابن هبيرة وقال: ما جئتموني به إلا عمدًا، ما هذا بمجنون!

والنشاش: يومٌ كان لقيس على حنيفة. والفلج: يومٌ كان لحنيفة على قيس.

وأنشدوا:

تـرى القـومَ أسـواءً إذا حُسِـبوا معًـا وفي القـومِ زَيـفٌ مِثـلُ زَيـفِ الـدَّراهمِ

وقال:

فـــتًى زادَه عِـــزُّ المَهابـــةِ ذِلَّـــةً　　　وكـــلُّ عَزيـــزٍ عنـــدَه مُتواضِـــعُ

وقال:

قـــد يَنفـــعُ الأدبُ الأحـــداثَ في　　　مَهَـلٍ وليس يَنفـعُ بعـدَ الكَـبْرَةِ الأدبُ

إنَّ الغُصـــونَ إذا قوَّمتَهـــا اعتـــدلتْ　　　ولـــن تَلِـــينَ إذا قوَّمتَهـــا الخُشُـــبُ

كتاب العصا

هذا كتاب العصا

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلَّى الله تعالى على محمدٍ خاصَّة، وعلى أنبيائه عامَّة.

هذا أبقاك الله تعالى الجزء الثالث من القول في «البيان والتبيين»، وما شابَه ذلك من غُرَر الأحاديث، وشاكَله من عيون الخُطب، ومن الفِقَر المستحسَنة، والنُّتَف المتخيَّرة، والمقطَّعات المستخرَجة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخَبة.

ونبدأ على اسم الله تعالى بذِكر مذهب الشُّعوبيَّة ومن يتحلَّى بِاسم التسوية، وبمطاعنهم على خُطباء العرب بأخذ المِخصَرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمُقفَّى، والمنثور الذي لم يُقفَّ، وبالأرجاز عند المَتْح، وعند مُجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاولة، وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خُطب الحَمالة، وفي مقامات الصُّلح وسَلِّ السخيمة، والقول عند المعاقرة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيَّته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة، ولا اختلاف تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلُّف لوزن، مع الذي عابوا من الإشارة بالعِصِي، والاتكاء على أطراف القِسِي، وخدِّ وجه الأرض بها، واعتمادها عليها إذا استحفزت في كلامها، وافتنَّت يوم الحفل

في مذاهبها، ولزومهم العمائم في أيام الجموع، وأخذ المخاصر في كل حال، وجلوسها في خطب النكاح، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة، وأكَّد شأن المحالفة، وحقَّق حُرمة المجاورة، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار، والتماسح بالأكُف، والتحالف على النار، والتعاقد على المِلح، وأخذ العهد المؤكَّد، واليمين الغموس، مثل قولهم: ما سرى نجم، وهبَّت ريح، وبلَّ بحرٌ صوفة، وخالفت جرةٌ درة؛ ولذلك قال الحارث بن حِلِّزة اليَشكُري:

واذكُـــروا حِلـــفَ ذي المَجـــازِ ... ومـا قُـدِّ مَ فيـه العُهـودُ والكُفـلاءُ

حَـذَرَ الخَـونِ والتَّعـدِّي وهـل تَنـ ... ـقُضُ مـا في المَهـارِقِ الأهـواءُ

الخون: الخيانة، ويُروى: «الجور». وقال أوس بن حَجَر:[٢]

إذا اسـتقبلتْه الشَّـمسُ صـدَّ بوَجهِـه ... كما صـدَّ عـن نارِ المُهـوِّلِ حـالِفُ[٣]

وقال الكُميت:

كَهُولـةِ مـا أوقَـدَ المُحلِفـونَ ... لـدى الحـالِفِينَ ومـا هوَّلـوا[٤]

وقال الأول:

حلَفـتُ بالمِلـحِ والرَّمـادِ وبالنَّـا ... رِ وباللهِ تُسـلِمُ الحَلَقـةْ

حـتى يظـلَّ الجـوادُ مُنعفِـرًا ... وتَخضِـبَ النَّبْـلُ غُـرَّةَ الوَرَقـةْ

وقال الأول:

حلَفـتُ لهـم بالمِلـحِ والجَمـعُ شُـهَّدٌ ... وبالنَّـارِ والـلَّاتِ الـتي هـيَ أعظَـمُ

وقال الحُطيئة في إضجاع القِسِي:

أم مَـن لخَصـمٍ مُضـجِعِينَ قِسِـيَّهم　　　صُـعْرٍ خُـدودُهمُ عِظـامُ المَفخَـرِ

وقال لَبِيد بن ربيعة في خدِّ وجه الأرض بالقِسِي والعِصِي:

نَشِـينَ صِـحاحَ البِيـدِ كـلَّ عَشـيَّةٍ　　　بعُـوجِ السَّـراءِ عنـدَ بابِ مُحجَّـبِ

ومِثله:

إذا اقتسـمَ النَّـاسُ فَضْـلَ الفَخـارِ　　　أطَلْنـا علـى الأرضِ مَيـلَ العصـا

وقال لَبِيد بن ربيعة في ذِكر القِسِي:

مـا إنْ أهـابَ إذا السُّـرادِقُ　　　عمَّـه قَـرعُ القِسِـيِّ وأُرعِـشَ الرِّعديـدُ

وقال كُثيِّر، في الإسلام:

إذا فَرَعـوا المَنـابِرَ ثُمَّ خطُّـوا　　　بأطـرافِ المَخاصِـرِ كالغِضـابِ

وقال أبو عُبيدة: سأل معاوية شيخًا من بقايا العرب: أي العرب رأيتَه أضخم شأنًا؟ قال: حِصن بن حُذيفة، رأيته مُتوكئًا على قوسه يَقسِم في الحليفَين أسد وغطفان.

وقال أبو اليقظان: كانوا يقولون: أخطَبُ بني تميم البعيثُ إذا أخذ القناة فهزَّها ثم اعتمد بها على الأرض ثم رفعها. قال يونس: لعَمْري لئن كان مغلَّبًا في الشعر لقد كان غلَب في الخُطب.

وإذا قالوا غلَبَ فهو الغالب، وإذا قالوا مُغلَّب فهو المغلوب.

وفي حديث النبي ﷺ أنه جاء البقيع ومعه مِخصَرة، فجلس فنكت بها

الأرض، ثم رفع رأسه فقال: «ما من نفسٍ منفوسة إلا وقد كُتِب مكانها من الجنة أو النار.» وهو من حديث أبي عبد الرحمن السُّلَمي.

ومما يدلُّك على استحسانهم شأن المِخصرة حديث عبد الله بن أُنيس ذي المخصرة، وهو صاحب ليلة الجُهَني، وكان النبي ﷺ أعطاه مخصرة، فقال: «تلقاني بها في الجنة.» وهو مُهاجرٌ عَقَبي أنصاري، وهو ذو المِخصرة في الجنة.

***

(١) مَطاعن الشعوبية على العرب بشأن العصا

وقالت الشُّعوبية ومن يتعصَّب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للقار، والعصا للقتال، والقوس للرَّمي، وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نَسب. وهما إلى أن يشغلا العقل، ويصرفا الخواطر، ويعترضا الذهن، أشبَه. وليس في حملها ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بها ما يجلب اللفظ. وقد زعم أصحاب الغناء أن المغنِّيَ إذا ضرب على غنائه قصَّر عن المغنِّي الذي لا يضرب على غنائه. وحمل العصا بأخلاق الفدَّادين أشبه، وهو بجُفاة الأعراب وعُنجُهيَّة أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطُّرق، أشكَل، وبه أشبَه.

قالوا: والخطابة شيءٌ في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج لتُطيل الخُطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطأ وأجهل. وقد علمنا أن أخطبَ الناس الفُرس، وأخطب الفُرس أهل فارس؛ وأعذبَهم كلامًا، وأسهلهم مَخرجًا، وأحسنهم ولاءً، وأشدُّهم فيه تحنُّكًا، أهل مَرو؛ وأفصحَهم

بالفارسية الدَّريَّة، وباللغة الفَهلوية، أهل قصبة الأهواز. فأما نَغْمة الهِربِذ ونغمة الموبذان فلصاحب تفسير الزمزمة. قالوا: ومن أحبَّ أن يبلُغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحَّر في اللغة، فليقرأ كتاب «كاروَند». ومن احتاج إلى العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعِبَر والمَثُلات، والألفاظ الكريمة، والمعاني الشريفة، فلينظر إلى سِيَر الملوك.

فهذه الفُرس ورسائلها وخُطبها، وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخُطبها، وعِللها وحِكمها، وهذه كُتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة، والخطأ من الصواب، وهذه كُتُب الهند في حِكمها وأسرارها، وسِيَرها وعِللها؛ فمن قرأ هذه الكتب عرف غَوْر تلك العقول، وغرائب تلك الحِكم، وعرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة؛ فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني، وتخيُّر الألفاظ، وتمييز الأمور، أن يُشيروا بالقنا والعِصِي، والقُضبان والقِسِي؟ كلا، ولكنكم كنتم رُعاة بين الإبل والغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، وحملتموها في السِّلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب. ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم إنما تُخاطبون الصُّمَّان إذا كلَّمتم الجُلساء. وإنما كان جُل قتالكم بالعِصِي؛ ولذلك فخر الأعشى على سائر العرب فقال:

لَسْنا نُقاتِلُ بالعِصِيّ ولا نُرامي بالحِجارةْ

إلا عُلالةَ أو بَدا هةَ قارحٍ نَهْدِ الجُزارةْ

وقال الآخر:

فـــإنْ تَمنَعـــوا منَّـــا السِّـــلاحَ فعِنـــدَنا | سِـــلاحٌ لنـــا لا يُشـــترى بالـــدَّراهمِ
جَنـــادِلُ أمْـــلاءُ الأكُـــفِّ كأنَّهـــا | رُءوسُ رِجـــالٍ حُلِّقَـــت بالمَواسِـــمِ
مـــا لِلفَـــرزَدقِ مـــن عِـــزٍّ يَلُـــوذُ بـــه | إلا بَـــني العـــمِّ في أيـــدِيهم الخَشَـــبُ

***

(٢) مطاعن الشعوبية على العرب بشأن آلات الحرب

قالوا: وإنما كانت رِماحكم من مُرَّان، وأسِنَّتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء؛ فإن كان الفَرس ذا سَرْج فسَرجُه رِحالة من أدَم، ولم يكن ذا رِكاب، والرِّكاب من أجود آلات الطاعن برمحه، والضارب بسيفه، وربما قام فيهما أو اعتمد عليهما. وكان فارسكم يطعن بالقناة الصمَّاء، وقد علِمنا أن الجَوفاء أخَفُّ محملًا، وأشد طعنةً. وتفخرون بطول القناة ولا تعرفون الطعن بالمطارد، وإنما القنا الطِّوال للرَّجَّالة، والقِصار للفُرسان، والمطارد لصيد الوحش. وتفخرون بطول الرمح وقِصَر السيف، فلو كان المُفتخِر بقِصَر السيف الراجل دون الفارس، لكان الفارس يفخر بطول السيف، وإن كان الطول في الرمح إنما صار صوابًا لأنه ينال به البعيد، ولا يفوته العدو، ولأن ذلك يدل على شدة أسْر الفارس وقوة أيده، فكذلك السيف العريض الطويل. وكنتم تتَّخذون للقناة زُجًّا وسِنانًا حين لم يقبض الفارس منكم على أصل قناته، ويعتمد عند طعنته بفخذه، ويستعين بحميَّة فَرسه.

وكان أحدكم يقبض على وسط القناة ويخلِّف منها على مِثل ما قدَّم، فإنما طعنكم الدَّرْه والنَّهْزة، والخَلس والزَّج. وكنتم تتساندون في الحرب، وقد عُلِم أن الشركة رديَّة في ثلاثة أشياء؛ في المُلك، والحرب، والزوجة. وكنتم لا تُقاتلون بالليل، ولا تعرفون البَيات، ولا الكمين، ولا المَيمنة، ولا المَيسرة، ولا القلب، ولا الجَناح، ولا الساقة، ولا الطليعة، ولا النفَّاضة، ولا الدرَّاجة. ولا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة، ولا العرَّادة، ولا المجانيق، ولا الدبَّاب، ولا الخنادق، ولا الحَسَك. ولا تعرفون الأقبِية، ولا السراويلات، ولا تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود والتجافيف، ولا الجواشن، ولا الخُوَذ، ولا السواعد، ولا الأجراس، ولا الوَهق، ولا الرمي بالبَنجكان، ولا الزَّرق بالنِّفط ولا النيران. وليس لكم في الحرب صاحب عَلَم يرجع إليه المُنحاز، ويتذكره المُنهزِم. وقتالكم إما سلَّة وإما مزاحفة. والمزاحفة على مَواعد متقدِّمة، والسلَّة مسارقة وفي طريق الاستلاب والخُلسة.

قالوا: والدليل على أنكم لم تكونوا تُقاتلون بالليل قولُ العامري:

يا شَـــدَّةً مـــا شَـــدَدْنا غـــيرَ كاذبـــةٍ ... علـــى سَـــخِينةَ لـــولا الليـــلُ والحَـــرَمُ

ويدل على ذلك أيضًا قول الحارث بن ضِرار:

وعمـــــــــرٌو إذ أتانا مُســــــــــتمِيتًا ... كَسَـــــونا رأسَـــــه عَضْـــــبًا صَـــــقِيلا

فلـــولا اللَّيـــلُ مـــا آبُـــوا بشَـــخصٍ ... يُخَـــبِّرُ أهلَهـــــم عـــــنهم قلـــــيلا

***

(٣) رد الجاحظ على الشعوبية

قلنا: ليس لكم فيما ذكرتم في هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تُقاتل بالليل، وقد يُقاتل بالليل والنهار من تَحُول دون ماله المُدُن وهَول الليل، وربما تحاجز الفريقان وإن كان كل واحد منها يرى البَيات، ويرى أن يُقاتل إذا بيَّتوه، وهذا كثير. والدليل على أنهم كانوا يُقاتلون بالليل قول سعد بن مالك في قتل كعب بن مُزَيقِيا المِلك الغسَّاني:

وليلـــةَ تُبَّـــعٍ وخَمِـــيسِ سَـــعدٍ ... أتَـــونا بعـــدَما نِمْنـــا دَبِيبـــا

فلـــمْ نَهـــدَأ لبأسِـــهمُ ولكـــنْ ... رَكِبْنـــا حـــدَّ كـــوكبِهم رُكـــوبا

بضَـــربٍ تُفلَـــقُ الهامـــاتُ منـــه ... وطَعـــنٍ يَفصِـــلُ الحَلَـــقَ الصَّـــلِيبا

وقال بِشر بن أبي خازم:

فأمَّـــا تمـــيمٌ تمـــيمُ بـــنُ مُـــرٍّ ... فألفـــاهم القـــومُ رَوْبى نِيامـــا

يقول: شربوا اللبن الرائب فسكِروا منه، وهو اللبن الذي قد أُخرجت زبدته.

وأما قولهم: لا يعرفون الكمين، فقد قال أبو قيس بن الأسلت:

وأحـــرَزْنا المَغـــانِمَ واســـتبَحْنا ... حِمـــى الأعـــداءِ واللهُ المُعِـــينُ

بغَـــيرِ خَلابـــةٍ وبغَـــيرِ مَكـــرٍ ... مُجـــاهَرةً ولم يُخبَـــأ كَمِـــينُ

وأما ذِكرهم للرُّكُب، فقد أجمعوا على أن الرُّكُب كانت قديمة، إلا أن رُكُب الحديد لم تكن في العرب إلا أيام الأزارقة، وكانت العرب لا تعوِّد

أنفُسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الرُّكُب، وإنما كانت تنزو نزوًا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا تخور قُوًى ما كان صاحبها ينزو ويَنزِع.

يقول: أي لا تنتكث قوته ما دام ينزع في القوس، وينزو في السرج، من غير أن يستعين بركاب.

وقال عمر: الراحة عُقلة، وإيَّاكم والسِّمنة فإنها عقلة.

ولهذه العلة قُتل خالد بن سعيد بن العاص حين غشِيَه العدو وأراد الركوب ولم يجد من يحمله.

ولذلك قال عمر حين رأى المهاجرين والأنصار لما أخصبوا، وهمَّ كثير منهم بمقاربة عيش العجم: تَمَعدَدوا واخشوشِنوا، واقطعوا الرُّكُب، وانزوا على الخيل نزوًا. وقال: احفَوا وانتعِلوا؛ فإنكم لا تدرون متى تكون الجَفلة.

وكانت العرب لا تدع اتخاذ الرِّكاب للرَّحل، فكيف تدع الرِّكاب للسَّرج؟ ولكنهم كانوا وإن اتخذوا الرُّكب فإنهم لا يستعملونها إلا عند ما لا بد منه؛ كراهيةَ أن يتَّكلوا على بعض ما يُورثهم الاسترخاء والتفتُّخ، ويُضاهئون أصحاب الترفُّه والنعمة. قال الأصمعي: قال العُمري: كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويثب، فكأنما خُلِق على ظهر فرسه. وفعل مِثلَ ذلك الوليدُ بن يزيد وهو يومئذٍ وليُّ عهد هشام، ثم أقبل على مَسلمة بن هشام فقال له: أبوك يُحسِن مِثل هذا؟ فقال مَسلمة: لأبي مائة عبد يُحسِنون مِثل هذا. فقال الناس: لم يُنصِفه في الجواب.

وزعم رجال من مَشيختنا أنه لم يقُم أحد من ولد العبَّاس بالمُلك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية.

وأما ما ذكروا في شأن رِماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهَّمون. وللرماح طبقات؛ فمنها «النَّيزك»، ومنها «المربوع»، ومنها «المخموس»، ومنها «التام»، ومنها «الخَطِل» وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طوله، فإذا أراد الرجل أن يُخبِر عن شدة أسْر صاحبه ذكره، كما ذكر مُتمِّم بن نُوَيرة أخاه مالكًا فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبرة، عليه الشَّملة الفلوت، بين المزادتَين النضوحَين، على الجمل الثَّفال، مُعتقَل الرمح الخَطِل. قالوا له: وأبيك إن هذا لهو الجَلد. ولا يحمل الرمحَ الخَطِل منهم إلا الشديدُ الأيد، والمُدلُّ بفضل قوَّته عليه، الذي إذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه وحاد عنه، فإن شد عليه كان أشد لاستخدامه له. والحال الأخرى أن يخرجوا في الطلب بعقب الفارَّة، فربما شد على الفارس المُولي فيفوته بأن يكون رمحه مربوعًا أو مخموسًا، وعند ذلك يستعملون النيازك، والنيزك أقصر الرماح. وإذا كان الفارس الهارب يفوت الفارس الطالب زجَّه بالنيزك، وربما هاب مخالطته فيستعمل الزج دون الطعن، صنيع ذؤاب الأسدي بعُتيبة بن الحارث بن شهاب.

وقال الشاعر:

وأسمَرَ خطِّيًّا كأنَّ كُعوبَه نَوى ... القَسبِ قد أرْمى ذِراعًا على العَشْرِ

وقال آخر:

تَولَّوا وأطرافُ الرِّماحِ ... عليهمُ بَوادِرُ مَربوعاتُها وطِوالُها

وهم قومٌ الغارات فيهم كثيرة، وبقدر كثرة الغارات كَثُر فيهم الطلب. والفارس ربما زاد في طول رمحه ليُخبر عن فضل قوته، ويُخبر عن قِصَر سيفه ليُخبر عن فضل نجدته. قال كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرنَ بخَطونا قُدُمًا ونُلحِقُها إذا لم تُلحَقِ

وقال آخر:

إذا الكُماةُ تَنحَّوا أنْ يَنالَهُمُ حدُّ الظُّباةِ وَصَلْناها بأيدينا

وأما ما ذكروا من اتخاذ الزج لسافلة الرمح، والسِّنان لعاليته، فقد ذكروا أن رجلًا قتل أخوَين في نَقاب – تقول العرب: لقيته سقابًا ونقابًا؛ أي مواجهة – أحدهما بعالية الرمح والآخر بسافلته، وقدِم في ذلك راكب من قِبَل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر، فأثبته له من قِبَله. وقال الآخر:

إنَّ لقَيسٍ عادةً تَعتادُها سَلَّ السُّيوفِ وخُطًى تَزدادُها

وقد وصفوا السيوف أيضًا بالطول، فقال عُمارة بن عُقيل:

بكلِّ طويلِ السَّيفِ ذي خَيزُرانةٍ جريءٍ على الأعداءِ مُعتمِدِ الشَّطبِ

وجملة القول إنَّا لا نعرف الخُطب إلا للعرب والفُرس.

وأما الهند فإنما لهم معانٍ مدوَّنة، وكُتبٌ مجلَّدة، لا تُضاف إلى رجلٍ معروف، ولا إلى عالمٍ موصوف، وإنما هي كُتبٌ متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرةٌ مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق. وكان صاحب المنطق نفسه بَكيء

اللسان، غير موصوف بالبيان، مع عِلمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفي الفُرس خُطباء، إلا أن كل كلام للفُرس، وكل معنًى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني عِلم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم.

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك مُعاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وَهمَه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخِصام، أو حين أن يَمتَح على رأس بئر، أو يحدُوَ ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيَه المعاني أرسالًا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالًا، ثم لا يقيِّده على نفسه، ولا يدرِّسه أحدًا من ولده.

وكانوا أمِّيِّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلَّفون، وكان الكلام الجيِّد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر. وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع. وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل. وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ أو يحتاجوا إلى تدارُس. وليس هم كمن حفِظ عِلم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علِق بقلوبهم، والْتَحم بصدورهم، واتَّصل بعقولهم، من غير تكلُّف ولا

قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب. وإن شيئًا الذي في أيدينا جزءٌ منه لبِالمِقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب، وعد التراب، وهو الله الذي يُحيط بما كان، والعالِم بما سيكون.

ونحن، أبقاك الله، إذا ادَّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهدٌ صادق من الديباجة الكريمة، والرَّونق العجيب، والسَّبك والنَّحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان، أن يقول في مِثل ذلك إلا في اليسير، والنَّبذ القليل.

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفُرس أنها صحيحةٌ غير مصنوعة، وقديمة غير مولَّدة، إذا كان مِثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عُبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولِّدوا مِثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السِّيَر.

وأخرى؛ أنك متى أخذت بيَد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخُلَّص، ومَعدِن الفصاحة التامة، ووقَفتَه على شاعرٍ مُفلق، أو خطيبٍ مِصقع، علِم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عيانًا، فهذا فرق ما بيننا وبينهم.

فتفهَّم عني، فهَّمك الله، ما أنا قائل في هذا، واعلم أنك لم ترَ قومًا قطُّ أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعِرضه، ولا أطول نصَبًا، ولا أقل غُنمًا، من أهل هذه النِّحلة. وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقُّد نار الشنآن في

قلوبهم، وغليان تلك المَراجل الفائرة، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق كل مِلَّة، وزِيَّ كل لُغة، وعِللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولِمَ اختلقوه ولِمَ تكلَّفوه؛ لأراحوا أنفُسهم، ولخفَّت مؤنتهم على من خالطهم.

والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصلٍ كريم، ومن مَعدِن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا مُعاند، اتخاذُ سليمان بن داود، صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليه، العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة. قال الله عز وجل وقولُه الحق: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ. والمِنسأة هي العصا. وقال أبو طالب حين قام بذم الرجل الذي ضرب زميله بالعصا فقتله حين تخاصما في حبل وتجاذبا:

أمِـــنْ أجـــلِ حَبـــلٍ لا أباكَ عَلَوتَـــه بمِنســـأةٍ قـــد جـــاءَ حَبـــلٌ وأحبُـــلُ

وقال آخر:

إذا دبَبـــتَ علـــى المِنســـاةِ مـــن كِـــبَرٍ فقـــد تَباعَـــدَ عنـــك اللَّهـــوُ والغَـــزَلُ

قال أبو عثمان: وإنما بدأنا بذِكر سليمان، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لأنه من أنبياء العجم، والشعوبية إليهم أميَل، وعلى فضائلهم أحرص، ولِما أعطاهم الله أكثر وصفًا وذِكرًا. وقد جمع الله لموسى بن عِمران في عصاه من البُرهانات العِظام، والعلامات الجِسام، ما عسى أن

يفيء ذلك بعلامات عِدَّة من المُرسَلين، وجماعة من النبيّين. قال الله تبارك وتعالى فيما يذكُر في عصاه: إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا، إلى قوله: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فلذلك قال الحسن بن هانئ في شأن خصيب وأهل مصر حين اضطربوا عليه:

فإنْ تَكُ من فِرعَونَ فيكم بَقيَّةٌ فإنَّ عصا موسى بكفِّ خَصيبِ

ألمْ ترَ أن السَّحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصا، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه؟ وقال الله عز وجل: وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وقال الله عز وجل: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ألا ترى أنهم لما سحروا أعيُن الناس واسترهبوهم بالعِصي والحبال، لم يجعل الله للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا، وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا؟

وقال الله تبارك وتعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا

تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ. فبارَك الله كما ترى على تلك الشجرة، وبارَك في تلك العصا، وإنما العصا جزء من الشجرة. وقال عز وجل: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا.

وقالت الحكماء: إنما تُبنى المدائن على الماء والكلأ والمُحتطَب.

فجمع بقوله: أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا النجم والشجر، والمِلح واليقطين، والبقل والعشب؛ فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح، وكل ذلك مَرعى، ثم قال على النسق: مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ. فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله؛ لأن المِلح لا يكون إلا بالماء، ولا تكون النار إلا من الشجر. وقال الله تبارك وتعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. وقال: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ. والمَرخ والعَفار، والسَّواس والعراجين، وجميع عيدان النار، وكل عُود يُقدح على طول الاحتكاك، فهو غنيٌّ بنفسه، بالغ للمُقوي وغير المُقوي. وحجر المرو يحتاج إلى قرَّاعة الحديد، وهما يحتاجان إلى العُطبة ثم إلى الحطب، والعيدان هي القادحة، وهي المُورية، وهي الحطب. قال الله عز وجل: الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ. والماعون: الماء والنار والكلأ.

وذكَر الله عز وجل النخلة فجعلها شجرة، فقال: أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. وذكَر رسول الله ﷺ حُرمة الحرم، فقال: «لا يُختلى خلاها، ولا يُعضَد شجرها.» وقال الله عز وجل: وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ

يَقْطِينٍ. وتقول العرب: ليس شيءٌ أدفأ من شجرة، ولا أظلَّ من شجرة. ولم يكلّم الله موسى إلا من شجرة، وجعل أكثر آياته في عصاه، وهي من الشجرة. ولم يمتحن الله عز وجل صبر آدم وحوَّاء، إذ هما أصل هذا الخلق وأوله، إلا بشجرة؛ ولذلك قال: وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. وجعل بيعة الرضوان تحت شجرة، وقال: وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ. وسِدرة المُنتهى التي عندها جنة المأوى شجرة، وشجرة سُرَّ تحتها سبعون نبيًّا لا تُعبَل ولا تُسرَف. وحين اجتهد إبليس في الاحتيال لآدم وحوَّاء، عليهما السلام، لم يصرف الحيلة إلا إلى الشجرة، وقال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى.

وفيما ضُرب من الأمثال بالعصا قالوا: قال جميل بن بَصبَهَري حين شكا إليه الدهاقين شر الحجَّاج: أخبِروني، أين مولده؟ قالوا: الحجاز. قال: ضعيفٌ مُعجَب. قال: فمَنشؤه؟ قالوا: الشام. قال: ذاك شر. ثم قال: ما أحسنَ حالَكم إن لم تُبتلَوا معه بكاتب منكم – يعني من أهل بابل – فابتُلوا بزاذان فرُّوخ الأعور. ثم ضرب لهم مثلًا فقال: إن فأسًا ليس فيه عودٌ أُلقي بين الشجر، فقال بعض الشجر لبعض: ما أُلقي هذا ها هنا لخير. فقالت شجرةٌ عاديَّة: إن لم يدخل في است هذا منكن عودٌ فلا تخَفنَه. وقال يزيد بن مفرّغ:

العَبدُ يُقرَعُ بالعصا ... والحُرُّ تَكفِيه المَلامةْ

قالوا: أخذه من الفلَتان الفَهمي حيث قال:

العَبدُ يُقرَعُ بالعصا ... والحُرُّ تَكفِيه الإشارةْ

وقال مالك بن الرَّيب:

العَبـــــدُ يُقـــــرَعُ بالعَصـــــا   والحُـــــرُّ يَكفِيـــــه الوَعيـــــدُ

وقال بشَّار:

الحُـــرُّ يُلْحـــى والعصـــا للعَبـــدِ   ولـــيس للمُلحِـــفِ مِثـــلُ الـــرَّدِّ

ومما يدخل في باب الانتفاع بالعصا أن عامر بن الظَّرِب العَدْواني حكَم العرب في الجاهلية، لما أسنَّ واعتراه النسيان أمر بِنتَه أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَّ عن الحكم، وجار عن القصد، وكانت من حكيمات بنات العرب، حتى جاوزت في ذلك مِقدار صُحْر بنت لُقمان، وهند بنت الخُس، وخمعة بنت حابس بن مَليل الإياديين. وكان يُقال لعامرٍ ذو الحِلم؛ ولذلك قال الحارث بن وَعْلة:

وزَعمـــــتُمُ أنْ لا حُلـــــومَ لنـــــا   إنَّ العصـــا قُرِعَـــت لـــذِي الحِلـــمِ

وقال المُتلمِّس:

لِـذِي الحِلـمِ قبْـلَ اليـومِ مـا تُقـرَعُ   العصـا ومـا عُلِّـمَ الإنسـانُ إلا ليَعلَمـا

وقال الفرزدق بن غالب:

فـإنْ كنـتُ أنسـاني حُلـومُ مُجاشِـعٍ   فـإنَّ العصـا كانـت لِـذِي الحِلـمِ تُقـرَعُ

ومن ذلك حديث سعيد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة، واعتزم الملك على قتل أخيه إن هو لم يُصِب ضميره، فقال له سعيد: أبَيتَ اللعن، أتدعُني حتى أقرع بهذه العصا أختها؟ فقال له الملك: وما عِلمه بما تقول العصا؟ فقرع بها وأشار بها مرةً ثم رفعها ثم وضعها، ففهِم المعنى،

فأخبره ونجا من القتل.

وذِكر العصا يجري عندهم في معانٍ كثيرة، تقول العرب: العصا من العُصيَّة، والأفعى بنت حيَّة. تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير. ويُقال: طارت عصا فلان شِققًا. وقال الأسدي:

عِصِيُّ الشَّملِ من أسدٍ أُراها قدِ انصدَعَت كما انصدَعَ الزُّجاجُ

يُقال: فلانٌ شقَّ عصا المسلمين. ولا يُقال: شق ثوبًا ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق. وقال العتَّابي في مديح بعض الخُلفاء:

إمامٌ له كَفٌّ تَضُمُّ بَنانُها عصا الدِّينِ ممنوعٌ من البَرْيِ عُودُها

وعَينٌ مُحِيطٌ بالبَرِيَّةِ طَرْفُها سَواءٌ عليه قُربُها وبَعيدُها

وقال المُضرِّس الأسدي:

وألقَتْ عَصاها واستقرَّت بها النَّوى كما قرَّ عَينًا بالإيابِ المُسافِرُ

وقال المضرِّس أيضًا:

فألقَتْ عصا التَّسْيارِ عنها وخيَّمَت بأرجاءِ عَذبِ الماءِ بِيضٍ مَحافِرُه

يُقال لبني أسد: عبيد العصا. يعنى أنهم كانوا ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء. قال بِشر بن أبي خازم:

عَبِيدُ العصا لم يَتَّقوكَ بذِمَّةٍ سِوى شَيبِ سَعدٍ إنَّ شَيْبَكَ واسِعُ

وتُسمِّي العرب كل صغير الرأس «العصا». وكان عمر بن هُبَيرة صغير الرأس. قال سويد:

فمـــن مُبلِـــغٌ رأسَ العصـــا أنَّ بيْنَنَـــا ضـــغائنُ لا تُنْســـى وإنْ قَـــدُمَ الـــدَّهرُ

وقال آخر:

فمـــن مُبلِـــغٌ رأسَ العصـــا أنَّ بيْنَنَـــا ضـــغائنُ لا تُحصـــى وإنْ قِيـــلَ سُـــلَّتِ

رضِـــيتَ لقَـــيسٍ بالقليـــلِ ولم تَكُـــنْ أخًـــا راضـــيًا لـــو أنَّ نَعْلَـــك زلَّـــتِ

وكان والبة صغير الرأس، فقال أبو العتاهية في رأس والبة ورءوس قومه:

رُءوسُ عِصِـــيٍّ كُـــنَّ مـــن عُـــودِ أثْلـــةٍ لهـــا قـــادحٌ يَفْـــري وآخَـــرُ مُجـــرِبُ

والدليل على أنهم كانوا يتَّخذون المَخاصر في مجالسهم كما يتَّخذون القنا والقِسيَّ في المحافل، قول الشاعر في بعض الخُلفاء:

في كفِّـــه خَيـــزُرانٌ رِيحُهـــا عَبِـــقٌ مـــن كـــفِّ أروَعَ في عِرنينِـــه شَمَـــمُ

يُغضِـــي حيـــاءً ويُغْضـــى مـــن مَهابتِـــه فمـــا يُكلَّـــمُ إلا حِـــينَ يَبتسِـــمُ

وقال الآخر:

مَجالسُـــهم خَفـــضُ الحـــديثِ وقـــولُهم إذا مـــا قضَـــوا في الأمـــرِ وَحـــيُ المَخاصِـــرِ

وقال الأنصاري:

يُصِـــيبونَ فَصْـــلَ القـــولِ في كـــلِّ خُطبـــةٍ إذا وصَـــلوا أيمـــانَهم بالمَخاصِـــرِ

وحدَّثني بعض أصحابنا قال: كنَّا مُنقطِعين إلى رجل من كِبار أهل العسكر، وكان لُبثُنا عنده يطول، فقال بعضنا: إن رأيت أن تجعل لنا أمارة إذا ظهرت لنا حفِظنا عنك ولم نُتعبك بالقعود؛ فقد قال أصحاب معاوية

لمعاوية مِثل الذي قلنا لك. فقال: أمارة ذلك أن أقول: إذا شئتم. وقيل ليزيد مِثل ذلك فقال: إذا قلت: على بركة الله. وقيل لعبد الملك مِثل ذلك فقال: إذا ألقيت الخيزرانة من يدي. قالوا: فأي شيء تجعل لنا أصلحك الله؟ قال: إذا قلت: يا غلام، الغداء.

وفي الحديث أن رجلًا ألحَّ على النبي ﷺ في طلب بعض المَغنم وبيده مِخصرة، فدفعه بها، فقال: يا رسول الله، أقِصَّني. فلما كشف النبي ﷺ له عن بطنه احتضنه وقبَّل بطنه.

وفي تثبيت شأن العِصي وتعظيم أمرها، والطعن على ذم حاملها، قالوا: كانت لعبد الله بن مسعود عشر خِصال؛ أولها السواد، وهو سِرار النبي ﷺ، فقال ﷺ: «إذنُك عليَّ أن يُرفع الحِجاب، وتسمع سوادي.» وكان معه مِسواك النبي ﷺ، وكانت معه عصاه.

ودخل عمر بن سعد على عمر بن الخطاب حين رجع إليه من عمل حمص – وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصاه – فقال له عمر: ما الذي أرى بك، من سوء الحال أم تصنُّع؟ قال: وما الذي تراني؟ أوَلست صحيح البدن، معي الدنيا بحذافيرها؟ قال: وما معك من الدنيا؟ قال: معي جِرابي أحمل فيه زادي، ومعي قَصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعي إداوتي أحمل فيها مائي لشرابي، ومعي عصاي إن لقيت عدوًّا قاتلته، وإن لقيت حيةً قتلتها، وما بقي من الدنيا تبع لِما معي.

وتقول العرب في مديح الرجل الجَلْد الذي لا يُفتات عليه بالرأي: ذلك الفَحل لا يُقرَع أنفه. وهذا كلام يُقال للخاطب إذا كان على هذه

الصفة؛ لأن الفَحل اللئيم إذا أراد الضِّراب ضُرِب أنفه بالعصا. وقد قال ذلك أبو سفيان بن حرب بن أمية عندما بلَغه من تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة، وقيل له: مِثلك تُنكَح نساؤه بغير إذنه؟ فقال: ذلك الفحل لا يُقرَع أنفه. والحمار الفاره يُفسِده السوط، وتُصلِحه المقرعة. وأنشد لسلامة بن جَندَل:

إنَّا إذا مـــا أتانا صـــارخٌ فَـــزِعٌ كــان الصُّــراخُ لــه قَــرْعَ الظَّنابيــبِ

وقال الحجاج: والله لأعصبنَّكم عصب السَّلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وذلك لأن الأشجار تُعصَب أغصانها ثم تُخبَط بالعِصي لسقوط الورق وهشيم العيدان. ودخل أبو مجلز على قُتيبة بخُراسان، وهو يضرب رجالًا بالعِصي، فقال: أيها الأمير، إن الله قد جعل لكل شيء قدْرًا، ووقَّت فيه وقتًا؛ فالعِصي للأنعام والبهائم، والسوط للحدود والتعزير، والدِّرَّة للأدب، والسيف لقتال العدو والقوَد.

ثم قال الشرقي: دعنا من هذا. خرجتُ من المَوصل وأنا أريد الرِّقَّة مُستخفيًا، وأنا شابٌّ خفيف الحال، فصحِبني من أهل الجزيرة فتًى ما رأيت بعده مِثله، فذكر أنه تغلبي من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مِزود وركوة وعصًا، فرأيته لا يُفارقها، وطالت ملازمته لها، فكِدتُ من الغيظ عليه أرمي بها في بعض الأودية. فكنا نمشي فإذا أصبنا دوابَّ ركِبْناها، وإذا لم نُصِب الدواب مشَينا. فقلت له في شأن عصاه، فقال لي: إن موسى بن عِمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، حين آنَس من جانب الطور نارًا، وأراد الاقتباس لأهله منها، لم يأتِ النار من مِقدار تلك المسافة القليلة إلا

ومعه عصاه، فلما صار بالوادي المقدَّس من البُقعة المباركة قيل له: ألقِ عصاك واخلع نعلَيك. فرمى نعلَيه راغبًا عنهما، حين نزَّه الله ذلك الموضع عن الجلد غير الذكي، وجعل الله جِماع أمره من أعاجيبه وبرهاناته في عصاه، ثم كلَّمه من جوف شجرة، ولم يكلمه من جوف إنسان ولا جان.

قال الشرقي: إنه ليُكثر من ذلك وإني لأضحك مُتهاونًا بما يقول، فلما برَزنا على حمارَينا تخلَّف المُكاري، فكان حماره يمشي فإذا تلكَّأ أكرهه بالعصا، وكان حماري لا ينساق، وأعلم أنه ليس في يدي شيء يُكرهه، فسبقني الفتى إلى المنزل فاستراح وأراح، ولم أقدر على البراح، حتى وافاني المُكاري، فقلت: هذه واحدة. فلما أردنا الخروج من الغد لم نقدر على شيءٍ نركبه، فكنَّا نمشي، فإذا أعيا توكَّأ على العصا، وربما أحضر ووضع العصا على وجه الأرض فاعتمد عليها ومر كأنه سهمٌ والح، حتى انتهَينا إلى المنزل وقد تفسَّختُ من الكَلال، وإذا فيه فضلٌ كثير، فقلت: هذه ثانية.

فلما كان في اليوم الثالث، ونحن نمشي في أرضٍ ذات أخاقيق وصدوع، إذ هجمنا على حيَّة مُنكَرة فساورتنا، فلم تكن عندي حيلة إلا خذلانه وإسلامه إليها والهرب منها، فضربها بالعصا فثقلت، فلما بهشت له ورفعت صدرها ضربها حتى وقذها، ثم ضربها حتى قتلها، قلت: هذه ثالثة، وهي أعظمهن. فلما خرجنا في اليوم الرابع، قرمت والله إلى اللحم، وأنا هاربٌ مُعدم، إذا أرنب قد اعترضت، فحذفها، فما شعرت والله إلا وهي معلَّقة، وأدركنا ذكاتَها، فقلت: هذه رابعة. وأقبلت عليه فقلت له: لو أن عندنا نارًا لمَا أخَّرت أكلها إلى المنزل.

قال: فإن عندك نارًا. فأخرج عُويدًا من مِزوده ثم حكَّه بالعصا فأورت إيراءً المَرخُ والعَفار عنده لا شيء، ثم جمع ما قدر عليه من الغثاء والحشيش، وأوقد ناره، وألقى الأرنب في جوفها. فأخرجناها وقد لزق بها من الرماد والتراب ما نغصها إلي، فعلَّقها بيده اليسرى ثم ضرب بالعصا على جُنوبها وأعراضها ضربًا رقيقًا حتى انتثر كل شيء عليها، فأكلناها وسكن القرم وطابت النفس، فقلت: هذه خامسة. ثم إنا نزلنا ببعض الخانات، وإذا البيوت مَلأى روثًا وترابًا، ونزلنا بعقب جند وخراب مُتقدم، فلم نجد موضعًا نظل فيه، فنظر إلى حديدة مِسحاة مطروحة في الدار، فأخذها فجعل العصا نِصابًا لها، ثم قام فجرف جميع ذلك الرَّوث والتراب، وجرَد الأرض بها جردًا حتى ظهر بياضها، وطابت ريحها، فقلت: هذه سادسة. وعلى أي حال لم تَطِب نفسي أن أضع طعامي وثيابي على تلك الأرض، فنزع والله العصا من حديدة المِسحاة فوتدها في الحائط، وعلَّق ثيابي عليها، فقلت: هذه سابعة.

فلما صِرتُ إلى مَفرِق الطُّرق وأردت مفارقته، قال لي: لو عدلت معي فبِتَّ عندي كنت قد قضيت حق الصحبة، والمنزل قريب. فعدلت معه، فأدخلني في منزلٍ يتَّصل ببيعة. قال: فما زال يحدِّثني ويُطرفني ويُلطفني الليل كله، فلما كان السَّحَر أخذ خشبةً ثم أخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها، فإذا ناقوس ليس في الدنيا مِثله، وإذا هو أحذق الناس بضربه، فقلت له: وَيلَك، أمَا أنت مسلم؟ وأنت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ تضرب بالناقوس؟ قال: جُعلت فِداك، إن أبي نصراني، وهو صاحب البِيعة، وهو شيخٌ ضعيف، فإذا

شهِدته برَرته بالكفاية. وإذا هو شيطانٌ مارد، وإذا أظرف الناس كلهم وأكثرهم أدبًا وطلبًا. فخبَّرته بالذي أحصَيته من خصال العصا بعد أن كنت همَمت أن أرميَ بها، فقال: والله لو حدَّثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لمَا استنفدتها.

ومن جُمَل القول في العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق، تفسير شعر غَنيَّة الأعرابية في شأن ابنها؛ وذلك أنها كان لها ابنٌ شديد العَرامة، كثير التلفُّت إلى الناس، مع ضعف أسْر ودِقَّة عظم؛ فواثَب مرةً فتًى من الأعراب، فقطع الفتى أنفه، وأخذت غنيَّة دِية أنفه فحسُنت حالها بعد فقر مُدقِع؛ ثم واثَب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية، فزادت دية أذنه في المال وحُسن الحال؛ ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حَسُن رأيها فيه، فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أحلِفُ بالمَروةِ يومًا والصَّفا — أنَّك خيرٌ من تفاريقِ العصا

فقيل لابن الأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تُقطَّع ساجورًا، وتُقطَّع عصا الساجور فتصير أوتادًا، ويُفرَّق الوتِد فتصير كل قطعة شِظاظًا، فإن كان رأس الشِّظاظ كالفُلكة صار للبُختي مِهارًا، وهو العُود الذي يُدخَل في أنف البُختي، وإذا فُرِّق المِهار جاءت منه توادٍ.

والسواجير تكون للكلاب — والأسرى من الناس.

وقال النبي ﷺ: «يؤتى بناس من ها هنا يُقادون إلى حظوظهم بالسواجير.»

وإذا كانت قناةً فكل شِقَّة منها قوس بندق. قال: فإن فُرِّقت الشِّقَّة صارت سهامًا، فإن فُرِّقت السهام صارت حِظاءً، وهي سِهامٌ صِغار. قال الطرماح: كحِظاء الغلام. والواحدة حظوة وسروة. فإن فُرِّقت الحظاء صارت مَغازل، فإن فُرِّق المِغزل شَعَب به الشَّعَّاب أقداحه المصدوعة المشقوقة، على أنه لا يجد لها أصلح منها. وقال الشاعر:

نَوافذُ أطرافِ القَنا قد شَكَكتُه كشَكِّكَ بالشَّعبِ الإناءَ المُثَلَّما

فإذا كانت العصا صحيحةً سالمة ففيها من المنافع الكبار والمرافق الأوساط والصغار ما لا يُحصيه أحد، وإذا فُرِّقت ففيها مِثل الذي ذكرنا وأكثر، فأي شيء يبلُغ في المرفق والمرد مبلغ العصا؟ وفي قول موسى على نبينا وعليه السلام وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى دليلٌ على كثرة المرافق فيها؛ لأنه لم يقُل: ولي فيها مأربةٌ أخرى. والمآرب كثيرة؛ فالذي ذكَرنا قبل هذا داخل في تلك المآرب.

ولا نعرف شِعرًا يُشبِه معنى شعر غنيَّة لا يُغادر منه شيئًا، ولكن زعم بعض أصحابنا أن أعرابيَّين ظريفَين من شياطين الأعراب حطمَتْهما السَّنة، فانحدرا إلى العراق، واسم أحدهما «حيدان»، فبيْنا هما يتماشيان في السوق فإذا فارس قد أوطأ دابَّته رِجل حيدان فقطع إصبعًا من أصابعه، فتعلَّقا به حتى أخذا منه أرش الإصبع – وكانا جائعين مقرورين – فحين صار المال في أيديهما قصدا لبعض الكرابج فابتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما أكل صاحب حيدان فشبع أنشأ يقول:

فـلا غَـرَثٌ مـا كـانَ في النَّـاسِ كُـربَجٌ ومـا بقِيَـت في رِجْـلِ حَيْـدانَ إصـبَعُ

وناسٌ كثير لا يستعملون في القتال إلا العصا، منهم الزنج؛ قنبلة، كنجوبة؛ والنمل والكلاب؛ وتكفو وتنبو؛ على ذلك يعتمدون في حروبهم. ومنهم النَّبَط، ولهم بها ثقافة وشدة وغلبة، وأثقف ما تكون الأكراد إذا قاتلت بالعِصي، وقتال المخارجات كلها بالعِصي، ولهم هناك ثقافة ومنظرٌ حسن، ولقتالهم منزلة بين السلامة والعطب.

والناس يضربون المثل بقتال البقَّار بقناته، ويُقال في المثل: ما هو إلا أُبْنة عصًا، وعُقدةُ رِشًا. ويُقال للراعي: إنه لضعيف العصا، إذا كان قليل الضرب بها للإبل، شديد الإشفاق عليها. قال الراعي:

ضعيفُ العَصا بادي العُروقِ تَرى له عليها إذا ما أجدَبَ الناسُ إصبَعا

وإذا كان الراعي جَلدًا قويًّا عليها قالوا: صُلْب العصا. ولذلك قال الراجز:

صُـــــــلْبُ العصـــــــــا باقٍ علـــــــــى أذاتِهـــــــــا

وقال الآخر في معنى الراعي:

لا تَضـــــــــــــــرِباها واشْـــــــــــهَرا العِصِـــــــــــيَّا

ويقولون: قد أقبل فلان ولانت عصاه، إذا أصابه السُّواف٢٠ فرجع وليس معه إلا عصاه؛ لأنه لا يُفارقها، كانت له إبل أم لا. ويقولون: كلما قُرِعت عصًا بعصًا، وعصًا على عصًا، وعصًا عصًا؛ قالوا: أخذوا فلانًا بذلك.

وقال حُميد بن ثَور:

اليـــومَ تُنتـــزَعُ العَصـــا مـــن ربِّهـــا ويَلُـــوكُ ثِـــنْيَ لســـانِه المِنْطيـــقُ

ويُكتَب مع قوله:

تَخْشـى العصـا والزَّجـرَ إنْ قِيـلَ حَـلِ يُرسِـــلُها التَّغمـــيضُ إنْ لم تُرسَـــلِ

وتكون العصا مِحراثًا، وتكون مِخصرة، وتكون المِخصرة قضيب حبرة وعود ساجور، ثم تكون تَودية. وُيقال للرجل إذا كانت فيه أُبنة: فلانٌ يَخبأ العصا. وقال الشاعر:

زوجُـــــــكِ زوجٌ صـــــــالحٌ لكنَّـــــــه يَخْبـــــا العصـــــا

وفي الأمثال: تحذفه بالقول كما تحذف الأرنب بالعصا. وقال إياس بن قتادة العَبشمي:

ســـأنحَرُ أُولاهـــا وأحـــذِفُ بالعصـــا علـــى إثْرِهـــا إنِّي لِمـــا قلـــتُ عـــازِمُ

قال ابن كُناسة في شرط الراعي على صاحب الإبل: ليس لك أن تذكُر أمي بخير ولا شر، ولك حذفي بالعصا عند غضبك، أصبتَ أم أخطأت، ولي مَقعدي من النار، وموضع يدي من الحارِّ والقار، كان العتبي يحدِّث في هذا بحديثين: أحدهما قوله عن الأعرابي: وكان إذا خرست والقار. كان العُتبي يحدِّث في هذا بحديثَين؛ أحدهما قوله عن الأعرابي: وكان إذا خرست الألسُن عن الرأي حذف بالصواب كما تحذف الأرنب بالعصا.

وأما الحديث الآخر فذكر أن قومًا أضلوا الطريق، فاستأجروا أعرابيًّا يدلهم على الطريق، فقال: إني والله لا قومًا أضلُّوا الطريق، فاستأجروا

أعرابيًّا يدلُّهم على الطريق، فقال: إني والله لا أخرج معكم حتى أشرط لكم وأشرط عليكم. قالوا: فهاتِ ما لك. قال: يدي مع أيديكم في الحارِّ والقار، ولي موضعي من النار موسَّع عليَّ ما فيه، وذِكر والدي عليكم محرَّم. قالوا: فهذا لك، فما لنا عليك إن أذنبت؟ قال: إعراضة لا تؤدي إلى تعب وعتب، وهجرة لا تمنع من مجامعة السُّفرة. قالوا: فإن لم تعتب؟ قال: فحذفة بالعصا أخطأت أم أصابت. وهذان الحديثان لم أسمعهما من عالِم، وإنما قرأتهما في بعض الكُتب من المُستحدَثين.

ولأهل المدينة عِصيٌّ في رءوسها عُجَر لا تكاد أكفُّهم تُفارقها إذا خرجوا إلى ضِياعهم ومتنزهاتهم، ولهم فيها أحاديث حسنة وأخبار طيّبة.

وجاء في الحديث: أجدبت الأرض على عهد عمر، رضي الله تعالى عنه، حتى ألقت الرِّعاء العِصي، وعُطِّلت النَّعَم، وكُسِر العظم، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابتهم السَّنة استسقَوا بعُصبة الأنبياء. فكان ذلك سبب استسقائه بالعبَّاس بن عبد المطلب.

وساوَرَت حيَّة أعرابيًّا فضربها بعصاه وسَلِم منها، فقال:

لـــولا الهَـــراوةُ والكفَّـــانِ أنهَلَـــني حَـــوْضَ المَنيَّـــةِ قتَّـــالٌ لمَـــن ورَدا

وقال الحجَّاج بن يوسف لأنس بن مالك: والله لأقلعنَّك قَلْع الصمغة، ولأعصبنَّك عَصْب السَّلمة، ولأجرّدنَّك تجريد الضب. وقال عمر رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح.

لأن الأرض لا تقبـــــــل الـــــــدم، فـــإذا جـــف الـــدم تقلَّـــع جُلَبًـــا.

ولقد أسرف المتلمِّس حيث يقول:

أحـــارِثُ إنَّا لـــو تُســـاطُ دِمـــاؤُنا تَـــزايَلنَ حـــتى لا يَمَـــسَّ دمٌ دَمـــا

وأشَدُّ سَرفًا منه قول أبي بكر الشَّيباني، قال: كنت أسيرًا مع بني عم لي من بني شيبان، وفينا من مَوالينا جماعة في أيدي التغالبة، فضربوا أعناق بني عمي وأعناق الموالي على وَهدة من الأرض، فكنت والذي لا إله إلا هو أرى دم العربي ينماز من دم الموالي حتى أرى بياض الأرض بينهما، فإذا كان هجينًا قام فوقه ولم يعتزل.

وأنشد الأصمعي:

يُـذَدنَ وقـد أُلقِيـتَ في قَعـرِ حُفـرةٍ كمـا ذِيـدَ عـن حَـوضِ العِـراكِ غَرائبُـه

وقال العبَّاس بن مِرداس:

نُقاتِـــلُ عـــن أحســـابِنا برماحِنـــا فنَضـــرِبُهم ضَـــرْبَ المُذِيـــدِ الخَوامِســـا

وقال الفرزدق بن غالب:

ذكَرتُ وقد كادت عصا البَينِ تَنشَظي خيالَـك مـن سَـلْمى وذو اللُّـبِّ ذاكِـرُ

وقال الأسدي:

إذا المـــرءُ أولاكَ الهَـــوانَ فأوْلِـــه هَـــوانًا وإنْ كانـــت قريبًـــا أواصِـــرُه

ولا تَظلِـمِ المَـولى ولا تَضَـعِ العصـا علـى الجهـلِ إنْ طـارت إليـكَ بَـوادِرُه

وقال جرير بن عطيَّة:

ألا رُبَّ مَصلوبٍ حمَلتُ على العصا ... وبابُ اسْتِه عن مِنبَرِ المُلْكِ زائلُ

وقالوا في مديح العصا نفسها مع الأغصان وكرم جوهر العِصي والقِسي:

إذا قامت لسَبْحتِها تَثَنَّت ... كأنَّ عِظامَها من خَيزُرانِ

وقال المؤمَّل بن أُمَيل:

والقومُ كالعِيدانِ يَفضُلُ بَعضُهم ... بَعضًا كذاك يَفُوقُ عُودٌ عُودا

لو تستطيعُ عنِ القضاءِ حِيادةً ... وعنِ المَنيَّةِ أنْ تُصِيبَ مَحِيدا

كانت تُقيِّدُ حينَ تَنزِلُ مَنزِلًا ... فالآنَ صارَ لها الكَلالُ قُيُودا

وقال آخر:

وأسْلَمَها الباكون إلَّا حَمامةً ... مُطوّقةً وَرْقاءَ بانَ قرينُها

تُجاوِبُها أخرى على خَيزُرانةٍ ... يَكادُ يُدنِّيها منَ الأرضِ لِينُها

وقال الآخر:

ألا أيُّها الرَّكبُ المُخِبُّونَ هل لكم ... بأُختِ بَني هِندٍ عُتيبةَ من عَهدِ

أألقَتْ عَصاها واستقرَّت بها النَّوى ... بأرضِ بني قابوسَ أم ظعَنَت بَعْدي

وقال الآخر:

ألا هتَفَت وَرْقاءُ في رَونَقِ الضُّحى ... على غُصُنٍ غَضِّ النَّباتِ من الرَّندِ

وقال آخر في امرأةٍ رآها في شارة وبِزَّة، فظنَّ بها جمالًا، فلما سفرت إذا هي غول، فقال:

وأظهَرَها ربّي بمَنٍّ وقُدرةٍ عليَّ ولولا ذاك مُتُّ من الكَربِ

فلمَّا بَدَت سبَّحتُ من قُبحِ وَجهِها وقلتُ لها الساجورُ خيرٌ من الكَلبِ

وقال النبي ﷺ: «يؤتى بقوم من هنا يُقادون إلى حظوظهم في السواجير.» والساجور يُسمَّى «الزَّمَّارة». قالوا: وفي الحديث: فأُتِيَ الحجَّاج بسعيد بن جُبير وفي عنقه زمَّارة.

أخبرني الكلابي قال: قاتلت بنو عم لي بعضهم بعضًا، فجعل بعضهم ينضمُّ إلى بعض لواذًا مني، وليس لي في ذلك هِجِّير إلا قولي:

قد جعلَت تأوي إلى جُثمانِها وكِرسِها العاديِّ من أعطانِها

فلما طلبوا القِصاص، قلت: دونكم يا بني عمي حقَّكم؛ فنحن اللحم وأنتم الشَّفرة، إن وهبتم شكرتُ، وإن اعتقلتم عقلت، وإن اقتصصتم صبرت.

قال: سألت يونس عن قوله: نَسْيًا مَنْسِيًّا. قال: تقول العرب إذا ارتحلوا عن المنزل ينزلونه: انظروا إلى أنسائكم. وهي العصا، والقَدَح، والشِّظاظ، والحبل. قال: فقلت: إني ظننت أن هذه الأشياء لا ينساها أربابها إلا لأنها أهوَن المتاع عليهم. قال: ليس ذلك كذلك، والمتاع الجافي يذكِّر بنفسه، وصغار المتاع تذهب عنها العيون، وإنما تذهب نفوس العامَّة إلى حِفظ كل شيء ثمين وإن صغُر جسمه، ولا يقفون على أقدار فوت

الماعون عند الحاجة وفقد المحلات في الأسفار. وقال يونس: المنسيُّ ما تَقادم العهد به ونُسي حينًا لهوانه، ولم تكن مريم لتضرب المثل في هذا الموضع بالأشياء النفيسة التي الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الشيء الثمين في الأسواق. وقال الأشهب بن رُميلة أو نَهْشَل بن حري:

قال الأقاربُ لا تَغرُرْكَ كثرتُنا وأغْنِ نَفْسَك عنَّا أيُّها الرَّجُلُ

عَلَّ بَنيَّ يَشُدُّ اللهُ أعظُمَهم والنَّبعُ يَنبُتُ قُضبانًا فيَكتهِلُ

وكان فرس الأخنس بن شهاب يُسمَّى «العصا»، والأخنس «فارس العصا». وكان لجَذيمة الأبرش فَرسٌ يُقال لها «العصا». ولبني جعفر بن كلاب «شحمة» و«الغدير» و«العصا»؛ فشحمة فرس جزء بن خالد، والعصا فرس عوف بن الأحوص، والغدير فرس شُريح بن الأحوص، و«العصا» أيضًا فرس شبيب بن كعب الطائي. وقال بعضهم أو بعض خطبائهم:

وليس عصاه من عَراجينِ نَخلةٍ ولا ذاتِ سَيرٍ من عِصيّ المُسافِرِ

ولكنَّها إمَّا سألتَ فنَبْعةٌ وميراثُ شَيخٍ من جِيادِ المَخاصِرِ

والرجل يتمنَّى إذا لم تكُن له قوة وهو يجد مس العجز، فيقول: لو كان في العصا سير. وكذلك قال حبيب بن أوس:

ما لك من هِمَّةٍ وعَزمٍ لو أنَّه في عَصاكَ سَيرُ

رُبَّ قليلٍ حدا كثيرًا كم مَطرٍ بَدؤه مُطَيرُ

وإذا لم يجعل المُسافر في عصاه سيرًا سقطت من يده إذا نعس.

وسئل عن قوله: وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قال: لست أحيط بجميع مآرب موسى عليه السلام، ولكني سأنبئكم جُملًا تدخل في باب الحاجة إلى العصا؛ من ذلك أنها تُحمَل للحيَّة، والعقرب، والذئب، والفحل الهائج، ولعير العانة في زمن هيج الفحول، وكذلك فحول الجحور في المروج، ويتوكَّأ عليها الكبير الدانف، والسقيم المُدنف، والأقطع الرِّجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى

كتاب الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ باسم الله وعَونه بشيء من كلام النُّسَّاك في الزهد، وبشيء من ذِكر أخلاقهم ومواعظهم.

عوف، عن الحسن قال: لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث؛ شبابه فيمَ أبْلاه، وعمره فيمَ أفناه، وماله من أين كسبه وفيمَ أنفقه.

وقال يونس بن عبيد: سمعت ثلاث كلمات لم أسمع بأعجب منهن؛ قول حسَّان بن أبي سِنان: ما شيءٌ أهوَنَ من ورع، إذا رابَك أمرٌ فدَعه. وقول ابن سيرين: ما حسدت أحدًا على شيءٍ قط. وقول مؤرِّق العِجلي: لقد سألت الله حاجةً منذ أربعين سنة ما قضاها ولا يئست منها. فقيل لمؤرِّق: ما هي؟ قال: تركُ ما لا يعنيني.

وقال أبو حازم الأعرج: إن عُوفينا من شرِّ ما أُعطينا لم يَضِرنا ما زُوِي عنا.

وقال أبو عبد الحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر: لو أن الصبر والشكر بَعيرانِ ما باليت أيهما ركِبت.

وقال ابن ضُبارة: إنَّا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعةٍ أهوَنَ من الصبر على عذاب الله.

وقال زياد عبد عيَّاش بن أبي ربيعة: أنا من أن أُمنَع الدعاء أخوَفُ من أن أُمنَع الإجابة.

وقال له عمر بن عبد العزيز رحمه الله: يا زياد، إني أخاف الله مما دخلت فيه. قال: لست أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألا تخاف.

وقال بعض النُّسَّاك: كفى موعظةً أنك لا تموت إلا بحياة، ولا تحيا إلا بموت. وهو الذي قال: اصحب من ينسى معروفه عندك. وهو الذي قال: لا تجعل بينك وبين الله مُنعِمًا، وعُدَّ النِّعَم منه عليك مَغرَمًا.

ودخل سالم بن عبد الله مع هشام بن عبد الملك البيت، فقال له هشام: سَلْني حاجتك. قال: أكره أن أسأل في بيت الله غيرَ الله.

وقيل لرابعة القيسية: لو كلَّمنا رجال عشيرتكِ فاشترَوا لكِ خادمًا تكفيك مؤنة بيتك؟ قالت: والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟

وقال بعض النُّسَّاك: دياركم أمامكم، وحياتكم بعد موتكم.

وقال أبو الدَّرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، وهم اليوم شوكٌ لا ورق فيه.

الحسن بن دينار قال: رأى الحسن رجلًا يكيد بنفسه. فقال: إن امرأً هذا آخره لجديرٌ أن يُزهَد في أوله، وإن أمرأً هذا أوله لجديرٌ أن يُخاف آخره.

وقال أبو حازم: الدنيا غرَّت أقوامًا فعملوا فيها بغير الحق، ففاجأهم الموت، فخلَّفوا ما لهم لمن لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يَعذِرهم؛ وقد خُلِّفنا بعدهم، فينبغي لنا أن ننظر إلى الذي كرِهناه منهم فنجتنبه، وإلى الذي غبِطناهم به فنستعمله.

موسى بن داود، رفع الحديث قال: النظر إلى خمسةٍ عبادة؛ النظر إلى الوالدَين، والنظر إلى البحر، والنظر إلى المصحف، والنظر إلى الصخرة، والنظر إلى البيت.

عبد الله بن شداد قال: أربعٌ من كنَّ فيه فقد برئ من الكِبْر؛ من اعتقل البعير، وركِب الحمار، ولبِس الصوف، وأجاب دعوة الرجل الدُّون.

وذُكِر عند أنسٍ الصوم فقال: ثلاثٌ من أطاقَهن فقد ضبط أمره؛ من تسحَّر، ومن قال، ومن أكل قبل أن يشرب، وشرِب ثم لم يأكل؛ فقد ضبط نفسه.

وقال الجمَّاز: ليس يقوى على الصوم إلا من كَثُر لَقمه، وطاب أُدْمه.

مُجالد بن سعيد، عن الشَّعبي قال، حدَّثني مُرَّة الهَمْداني – قال مجالد: وقد رأيته – وحدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه لم يرَ مِثل مُرَّة قط، كان يصلِّي في اليوم والليلة خمسمائة ركعة. وكان مُرَّة يقول: لما قُتل عثمان، رضي الله تعالى عنه حمدت الله ألا أكون دخلت في شيء من قتله، فصلَّيت مائة ركعة؛ فلما وقع الجَمل وصِفِّين حمدت الله ألا أكون

دخلت في شيء من تلك الحروب، وزدت مائتي ركعة؛ فلما كانت وقعة النهروان حمدت الله إذ لم أشهدها، وزدت مائة ركعة؛ فلما كانت فتنة ابن الزبير حمدت الله إذ لم أشهدها، وزدت مائة ركعة.

وأنا أسأل الله أن يغفر لمُرة، على أنَّا لا نعرف لبعض ما قال وجهًا؛ لأنك لا تعرف فقيهًا من أهل الجماعة لا يستحلُّ قتال الخوارج، كما أنَّا لا نعرف أحدًا منهم لا يستحلُّ قتال اللصوص، وهذا ابن عمر، وهو رئيس الحلسية وزعيمهم، قد لبس السلاح لقتال نجدة. وقيل لشُريح: الحمد لله الذي سلَّمك من القتال في شيء من هذه الفتن. قال: فكيف أصنع بقلبي وهواي؟ وقال الحسن: قتل الناقةَ رجلٌ واحد، ولكن الله عمَّ القوم بالعذاب لأنهم عمُّوه بالرضا. وسُئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصريه، فقال: تلك دماءٌ كفَّ الله يدي عنها؛ فأنا أُحبُّ ألا أغمس لساني فيها.

ودخل أبو الدرداء على رجلٍ يعوده فقال: كيف تجدك؟ فقال: أفرَقُ من الموت. قال: فمِمَّن أصبتَ الخير كله؟ قال: من الله. قال: فلِمَ تَفرَق ممَّن لم تُصِب الخير كله إلا منه؟

ولما قُذِف إبراهيم عليه السلام في النار قال له جبرائيل عليه السلام: ألك حاجة يا خليل الله؟ قال: أما إليك فلا.

ورأى بعض النُّسَّاك صديقًا له من النُّسَّاك مهمومًا، فسأله عن ذلك، فقال: كان عندي يتيمٌ أحتسب فيه الأجر، فمات. قال: فاطلب يتيمًا غيره؛ فإن ذلك لا يعدمك إن شاء الله. قال: أخاف ألا أصيب

يتيمًا في سوء خُلُقه. قال: أما إني لو كنت مكانك لم أذكُر سوء خُلُقه.

ودخل بعض النُّسَّاك على صاحب له وهو يكيد بنفسه، فقال: طِبْ نفسًا؛ فإنك تلقى ربًّا رحيمًا. قال: أما ذنوبي فإني أرجو أن يغفرها الله لي، وليس اغتمامي إلا لمن أدعُ من بناتي. قال له صاحبه: الذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارْجُه يحفظ بناتك!

وكان مالك بن دينار يقول: لو كانت الصحف من عندنا لأقلَلنا الكلام.

وقال يونس بن عبيد: لو أُمِرنا بالجَزَع لصبرنا. وكان يقول: كسبت في هذه السوق ثمانين ألفَ درهمٍ ما فيها درهم إلا وأنا أخاف أن أُسأل عنه.

سمع عمرو بن عبيد عبدَ الرحمن بن حذيفة يقول: قال الحُطيئة: إنما أنا حَسبٌ موضوع. فقال عمرو: كذب، ترَّحه الله، ذلك التَّقوى.

وقال أبو الدرداء: نِعْم صومعة المؤمن مَنزلٌ يكفُّ فيه نفسه وبصره وفرجه، وإيَّاكم والجلوس في هذه الأسواق؛ فإنها تُلغِي وتُلهِي.

***

(١) عظةٌ بالغة للحسن البصري

وقال الحسن: يا ابن آدم، بِع دُنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تَبِع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا. يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تَغبِطهم به. الثواء ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل. أُمَّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أُمَّتكم، وقد

أُسرعَ بخِياركم، فماذا تنظرون؟ آلْمُعايَنة؟ فكأنْ قد. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة. أما إنه والله لا أُمة بعد أمتكم، ولا نبيَّ بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظر بأولكم أن يلحقه آخركم. من رأى محمدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضع لبنةً على لبنة، ولا قصبةً على قصبة، رُفِع له عَلَمٌ فشمَّر إليه؛ فالوَحاءَ الوَحاء، والنَّجاءَ النَّجاء. علامَ تعرجون؟ أُتيتُم ورب الكعبة. قد أُسرعَ بخِياركم وأنتم كل يوم ترذلون، فماذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ على علم منه، اختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكان صفوته من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعًا ينظر إليه أهل الأرض، وآتاه منها قوتًا وبُلْغة.

ثم قال: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. فرغِب أقوام عن عيشه، وسخِطوا ما رضِي له ربه، فأبعدهم الله وسحقهم. يا ابن آدم، طَأِ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليلٍ قبرُك. واعلم أنك لم تزَل في هدم عمرك، منذ سقطت من بطن أمك. رحِمَ الله رجلًا نظر فتفكَّر، وتفكَّر فاعتبر، وأبصر فصبر؛ فقد أبصر أقوام ولم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، ولم يُدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارَقوا. يا ابن آدم، اذكُر قوله: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا. عدَل واللهِ عليك من جعَلك حسيب نفسك. خُذوا صفاء الدنيا وذروا

كدرها؛ فليس الصفو ما عاد كدرًا، ولا الكدر ما عاد صفوًا. دعوا ما يَرِيبكم إلى ما لا يَرِيبكم. ظهر الجفاء، وقلَّت العلماء، وعفَت السُّنَّة، وشاعت البدعة.

لقد صحِبت أقوامًا ما كانت صحبتهم إلا قُرة العين، وجِلاء الصدور. ولقد رأيت أقوامًا كانوا لحسناتهم أشفَق من أن تُرَد عليهم منكم من سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرَّم الله عليكم منها. ما لي أسمع حسيسًا، ولا أرى أنيسًا؟ ذهب الناس وبقي النسناس. لو تكاشفتم ما تدافنتم. تهادَيتم الأطباق ولم تتهادَوا النصائح. قال ابن الخطاب: رحِمَ الله امرأً أهدى إلينا مساوينا. أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون. المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أخذه من قِبَل ربه. إن هذا الحق قد جهِد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته؛ فمن حمِد الدنيا ذمَّ الآخرة، وليس يكره لقاءَ الله إلا مُقِيم على سخطه. يا ابن آدم، الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكنه ما وقَر في القلب وصدَّقه العمل.

وكان إذا قرأ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قال: عمَّ ألهاكم؟ عن دار الخلود، وجَنَّة لا تبيد. هذا، والله فضَح القوم، وهتَك الستر، وأبدى العُوار. تُنفِق مِثل دينك في شهواتك سَرفًا، وتمنع في حق الله درهمًا؟ ستَعلَم يا لُكَع. الناس ثلاثة؛ مؤمن، وكافر، ومنافق؛ فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف، وقوَّمه ذِكر العرض؛ وأما الكافر فقد قمعه السيف، وشرَّده الخوف، فأذعن بالجِزية، وسمح بالضريبة؛ وأما المُنافق ففي الحُجرات

والطُّرقات، يُسرُّون غير ما يُعلنون، ويُضمِرون غير ما يُظهرون؛ فاعتبروا إنكارهم ربَّهم بأعمالهم الخبيثة. وَيلَك، قتلتَ وليَّه ثم تتمنَّى عليه جَنَّته؟

وكان يقول: رحِمَ الله رجلًا خلا بكتاب الله، فعرَض عليه نفسه؛ فإن وافَقه حمِد ربه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالَفه اعتتب وأناب، وراجَع من قريب. رحِمَ الله رجلًا وعظ أخاه وأهله فقال: يا أهلي، صَلاتَكم صَلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، إخوانَكم إخوانَكم، مساكينَكم مساكينَكم، لعل الله يرحمكم؛ فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبدٍ من عِباده فقال: وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا. يا ابن آدم، كيف تكون مُسلِمًا ولم يَسلَم منك جارك؟ وكيف تكون مؤمنًا ولم يأمَنْك الناس؟

وكان يقول: لا يستحقُّ أحدٌ حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه؛ فإنه إذا فعل ذلك لم يُصلِح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يُصلِحه؛ فإذا فعل ذلك شُغِل بخاصة نفسه عن عيب غيره. وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره، فلا تَحقِرنَّ شيئًا من الخير وإن صَغُر؛ فإنك إذا رأيته سرَّك مكانه، ولا تحقِرنَّ شيئًا من الشر وإن صَغُر؛ فإنك إذا رأيته ساءك مكانه.

وكان يقول: رحِمَ الله عبدًا كسب طيبًا، وأنفق قصدًا، وقدَّم فضلًا. وجِّهوا هذه الفضول حيث وجَّهها الله، وضعوها حيث أمر الله؛ فإنَّ من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بَلاغهم، ويؤثِرون بالفضل. ألا إن

هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ففضحها؟ فلا والله ما وُجِد ذو لُب فيها فرِحًا؛ فإيَّاكم وهذه السُّبل المتفرِّقة التي جِماعها الضلالة، وميعادها النار. أدركت من صدر هذه الأمة قومًا كانوا إذا جنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم، يفترشون خدودهم، تجري دموعهم على خدودهم، يُناجون مولاهم في فِكاك رِقابهم، إذا عمِلوا الحسنة سرَّتهم وسألوا الله أن يتقبَّلها منهم، وإذا عملوا سيئة ساءتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم. يا ابن آدم، إن كان لا يُغْنيك ما يكفيك، فليس ها هنا شيءٌ يُغْنيك؛ وإن كان يُغْنيك ما يكفيك، فالقليل من الدنيا يكفيك. يا ابن آدم، لا تعمل شيئًا من الحق رياءً، ولا تتركه حياءً.

وكان يقول: إن العلماء كانوا قد استغنَوا بعِلمهم عن أهل الدنيا، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها. وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبةً في عِلمهم، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً في دنياهم؛ فرغِب أهل الدنيا بدنياهم عنهم، وزهِدوا في عِلمهم لِما رأوا من سوء مَوضعه عندهم.

وكان يقول: لا أذهب إلى من يُواري عني غِناه، ويُبدي لي فقره، ويُغلِق دوني بابه، ويمنعني ما عنده؛ وأدَع من يفتح لي بابه، ويُبدي لي غناه، ويدعوني إلى ما عنده.

وكان يقول: يا ابن آدم، لا غِنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، مؤمنٌ مُهتم، وعِلجٌ أغتَم، وأعرابي لا فِقه

له، ومُنافقٌ مكذِّب، ودنياوي مُترَف، نعَق بهم ناعق فاتَّبعوه، فَراشُ نار، وذِبَّان طمَع. والذي نفس الحسن بيده ما أصبح في هذه القرية مؤمنٌ إلا أصبح مهمومًا رزينًا، وليس لمؤمنٍ راحةٌ دون لقاء الله. الناس ما داموا في عافيةٍ مستورون، فإذا نزل بهم بَلاءٌ صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه. أيْ قوم، إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم، فسارِعوا إلى ربكم؛ فإنه ليس لمؤمنٍ راحةٌ دون الجنة، ولا يزال العبد بخيرٍ ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همِّه.

وقال الحسن في يوم فِطر، وقد رأى الناس وهيئاتهم: إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مِضمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلَّف آخرون فخابوا؛ فالعَجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المُحسِنون، ويخسر فيه المُبطِلون. أما والله لو أن كُشِف الغطاء لشُغِل مُحسِن بإحسانه، ومُسيء بإساءته، عن ترجيل شعر، أو تجديد ثوب.

***

(٢) عِظات لعمر بن الخطاب

وحدَّث عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: الناس طالبان؛ طالبٌ يطلب الدنيا فارفضوها في نحره؛ فإنه ربما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها، وربما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها؛ وطالبٌ يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافِسوه.

وحدَّث عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: يا أيها

الناس، إنه أتى عليَّ حينٌ وأنا أحسب أن من قرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده، ألا وقد خُيِّل إليَّ أن أقوامًا يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس، ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم؛ فإنا كنا نعرفكم إذا الوحي ينزل، وإذا النبي ﷺ بين أظهُرنا؛ فقد رُفع الوحي وذهب النبي ﷺ؛ فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيرًا ظننَّا به خيرًا وأثنَينا به عليه، ومن أظهر لنا شرًّا ظننَّا به شرًّا وأبغضناه عليه. اقدَعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلَعة؛ فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيلٌ مرئ، وإن الباطل خفيف وبئ. وتركُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة. ورُبَّ نظرةٍ زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا.

وقال أبو حازمٍ الأعرج: وجدت الدنيا شيئَين؛ شيئًا هو لي لن أعجَله دون أجله ولو طلبتُه بقوة السموات والأرض، وشيئًا هو لغيري لم أنَلْه فيما مضى ولا أناله فيما بقي، يُمنَع الذي لي كما يُمنَع الذي لغيري مني؛ ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي؟

ودخل على بعض ملوك بني مروان فقال: يا أبا حازم، ما المَخرج مما نحن فيه؟ قال: تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه. قال: ومن يُطِيق ذلك يا أبا حازم؟ قال: فمن أجل ذلك مُلئت جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين. قال: ما مالك؟ قال: مالان. قال: ما هما؟ قال: الثقة بما عند الله، واليأس مما في أيدي الناس. قال: ارفع حوائجك إلينا. قال: هيهات، رفعتها إلى من لا تُختزَل الحوائج دونه؛ فإن أعطاني منها شيئًا قبِلت، وإن زوى عني شيئًا رضِيت.

وقال الفُضَيل بن عِياض: يا ابن آدم، إنما يَفضُلك الغنيُّ بيومَين؛ أمس قد خلا، وغدٌ لم يأتِ؛ فإن صبرت يومك أحمدت أمرك وقوِيت على غدك، وإن جزعت يومك أذممت أمرك وضعفت عن غدك. وإن الصبر يُورِث البُرء، وإن الجَزع يُورِث السقم؛ وبالسقم يكون الموت، وبالبرء تكون الحياة.

وقال الحسن: أبا فلان، أترضى هذه الحال التي أنت عليها للموت إذا نزل بك؟ قال: لا. قال: أفتحدِّث نفسك بالانتقال عنها إلى حالٍ ترضاها للموت إذا نزل بك؟ قال: حديثًا بغير حقيقة. قال: أفبعد الموت دار فيها مُستعتَب؟ قال: لا. قال: فهل رأيت عاقلًا رضِي لنفسه بمِثل الذي رضِيتَ به لنفسك؟

إسماعيل بن إبراهيم ونطقه بالعربية دون تلقين

القول في إنطاق الله تعالى إسماعيل بن إبراهيم، صلى الله على نبينا وعليهما، بالعربية المُبِينة على غير التلقين والتمرين، وعلى غير التدريب والتدريج، وكيف صار عربيًّا أعجميَّ الأبوَين. وأول من عليه أن يُقر بهذا القحطاني؛ فإنه لا بد من أن يكون له أبٌ كان أول عربي من جميع بني آدم عليه السلام. ولو لم يكن ذلك كذلك، وكان لا يكون عربيًّا حتى يكون أبوه عربيًّا، وكذلك أبوه وكذلك جده، كان ذلك مُوجبًا لأن يكون نوح عليه السلام عربيًّا، وكذلك آدم عليه السلام.

قال أبو عُبيدة: حدَّثنا مسمع بن عبد الملك، عن أبي جعفر محمَّد بن علي بن الحسين، عن آبائه، قال: أول من فتق لسانَه بالعربية المبينة إسماعيلُ وهو ابن أربع عشرة سنة. قال النبي ﷺ: شهدتُ الفِجار وأنا ابن أربع عشرة سنة، وكنت أنبل على عمومتي. يريد: أجمع لهم النبل. قال أبو عُبيدة: فقال له يونس: صدقت يا أبا يسار، هكذا حدَّثني نصر بن طريف.

وروى قيس بن الربيع عن بعض أشياخه، عن ابن عباسٍ أن الله ألهم إسماعيل العربية إلهامًا. وقال الله تبارك وتعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ. قال: قد يرسل الله الرسول إلى قومه، ولو أرسل في ذلك الوقت إلى قومٍ آخرين لمَا كان الثاني ناقضًا للأول، وإذا كان

الأمر كذلك كان قومه أول من يفهم عنه ثم يصيرون حُجة على غيرهم.

وإذا كان الله عز وجل قد بعث محمدًا ﷺ إلى العجم فضلًا عن العرب، فقحطان وإن لم يكونوا من قومه أحقَّ بلزوم الفرض من سائر العجم. وهذا الجواب جواب عوام النِّزارية، فأما الخواص الخُلَّص فإنهم قالوا: العرب كلهم شيءٌ واحد؛ لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشِّيَم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك، والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق، من جهة الخئولة المرددة، والعمومة المُشتبكة، ثم المناسبة التي بُنيت على غريزة التربة، وطِباع الهواء والماء؛ فهم في ذلك شيءٌ واحد؛ في الطبيعة واللغة، والهِمَّة والشمائل، والمراعي والراية، والصناعة والشهوة؛ فإذا بعث الله عز وجل نبيًّا من العرب فقد بعثه إلى جميع العرب، وكلهم قومه، ولأنهم جميعًا يد على العجم، وعلى من حارَبهم من الأمم؛ لأن تناكُحهم لا يعدوهم، وتصاهُرهم مقصور عليهم.

قالوا: والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة، ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم، نعم، حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه، وربما كانت أشبه به خَلقًا وخُلقًا، وأدبًا ومذهبًا، فيجوز أن يكون الله تبارك وتعالى حين حوَّل إسماعيل عربيًّا أن يكون كما حوَّل طبع لسانه إلى لسانهم، وباعده من لسان العجم، أن يكون أيضًا حوَّل سائر غرائزه، وسلخ سائر طبائعه، فنقلها كيف أحب، وركَّبها كيف شاء، ثم فضَّله بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودة، واللسان البيِّن، بما لم يكن عندهم، وكما خصَّه من البيان بما لم يخصهم به فكذلك يخصه من تلك الأخلاق ومن تلك الدلائل بما يفوقهم ويروقهم؛ فصار

بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب، وبما نُقِل [إليهم] من طبائعه، ونقل إليه من طبائعهم، وبالزيادة التي أكرمه الله بها، أشرف شرفًا وأكرم كرمًا.

وقد علِمنا أن الخُرس والأطفال إذا دخلوا الجنة وحُوِّلوا في مقادير البالغين، وإلى الكمال والتمام، لا يدخلونها إلا مع الفصاحة بلسان أهل الجنة، ولا يكون ذلك إلا على خلاف الترتيب والتدريج، والتعليم والتقويم. وعلى ذلك المثال كان كلام عيسى بن مريم عليه السلام في المهد، وإنطاق يحيى عليه السلام بالحكمة صبيًّا، وكذلك القول في آدم وحوَّاء عليه السلام.

وقد قلنا في ذئب أُهبان بن أوس، وغُراب نوح، وهدهد سليمان، وكلام النملة، وحِمار عُزير، وكذلك كل شيء أنطقه الله بقدرته، وسخَّره لمعرفته ومشيئته، وإنما يمتنع البالغ من المعارف من قِبَل أمور تَعرِض من الحوادث، وأمور في أصل تركيب الغريزة؛ فإذا كفاهم الله تلك الآفات، وحصَّنهم من تلك المواضع، ووفَّر عليهم الذكاء، وجلب إليهم جياد الخواطر، وصرف أوهامهم إلى التعرُّف، وحبَّب إليهم التبيُّن؛ وقعت المعرفة، وتمَّت النعمة. والموانع قد تكون من قِبَل الأخلاط الأربعة على قدر القلة والكثرة، والكثافة والرِّقَّة. ومن ذلك ما يكون من جهة سوء العادة، وإهمال النفس؛ فعندها يستوحش من الفكرة، ويستثقل النظر. ومن ذلك ما يكون من الشواغل العارضة، والقُوى المُنقسمة. ومن ذلك ما يكون من خُرق المعلِّم، وقلة رِفق المؤدِّب، وسوء صبر المثقِّف. فإذا صفَّى الله ذهنه ونقَّحه وهذَّبه وثقَّفه، وفرَّغ باله، وكفاه انتظار الخواطر،

وكان هو المقيِّد له، والقائم عليه، والمُريد لهدايته، لم يلبث أن يعلم. وهذا صحيح في الأوهام، غير مدفوع في العقول، وقد جعل الله الخال أبًا، وقالوا: الناس بأزمانهم أشبَهُ منهم بآبائهم.

وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن، وعلى قدر ذلك شاهَدنا اللغات والأخلاق والشهوات؛ ولذلك قالوا: فلانٌ ابن بَجْدتها، وفلانٌ بيضة البلد. يقع ذمًّا ويقع حمدًا. وقال زياد: والله لَلكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم. ويقولون: ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة! كأنهم قالوا: ما أشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجَّاج. وقال سهل بن عمرو: أشبه امرأً بعضُ بَزِّه. وقال الأضبط بن قُرَيع: بكلِّ وادٍ بنو سعد.

ولولا أن الله عز وجل أفرد إسماعيل من العجم، وأخرجه بجميع معانيه إلى العرب، لكان بنو إسحاق أولى به. وإنما ذلك كرجل قد أحاط علمه بأن هذا الطفل من نجل هذا الرجل، ولكن لما كان من سِفاح لم يجُز أن يُضيفه إليه ويدعوَه أباه. وقد جعل الله نسب ابن الملاعِنة نسب أمه وإن وُلد على فراش أبيه. وقد أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه وإلى جميع القبط، وهما أمَّتان؛ كنعاني وقبطي. وقد جعل الله قوم كل نبي هم المبلِّغين والحُجة، ألا ترى أنَّا نزعم أن عجز العرب عن مِثل نظم القرآن حُجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجَزة؟ وقال النبي ﷺ: «خُصِصت بأمور؛ منها أني بُعثت إلى الأحمر والأسود، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طَهورًا.» فدلَّ بذلك على أن غيره من

الرسل إنما كان يُرسَل إلى الخاص، وليس يجوز لمن عرف صِدق ذلك الرسول من سائر الأمم أن يكذِّبه ويُنكِر دعواه، والذي عليه ترك الإنكار والعمل بشريعة النبي الأول.

هذا فرق ما بين من بُعث إلى البعض ومن بُعث إلى الجميع.

انقضى الباب.

وتم الكتاب

الفهرس